أم الصبي

رواية

سهام النجمي

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2019

أم الصبي

رواية

سهام النجمي

العنوان: أُم الصبي

النوع الأدبي: رواية

المؤلف: سهام النجمي (نبذة)

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: فريق عمل الدار

تصميم الغُلاف: فريق عمل الدار

سنة النشر: 2019

الحالة: حصرياً

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار: 36

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2019

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الصفحة الجروب الموقع

**

كثير من الايام في الحياة تمر مرور الكرام ، فتكون دون قيمة أو ملامح ، لا يقوم فيها المرء بشيء سوى النوم والأكل ينساها وتمحى من الذاكرة كأنها لم تكن، أيام أخرى تكون فارقة ومفصلية تبقى مطبوعة في البال إلى مالا نهاية.

كل إنسان يحلم باليوم الذي يجسد البداية الحقيقية للحياة و الحصول على السعادة المنشودة. فيهدر أياما وسنين لا طعم لها،تكون مجرد فترة انتظار متشوق ومتلهف لذلك اليوم ، الذي يجعل ما سبقه دون أهمية أو معنى ، هذا اليوم قد يكون يوم الزفاف ، يوم الحج يوم التخرج والظفر بشهادة ، يوم الحصول على راتب شهري، يوم الهجرة من الوطن لوطن أفضل ، أو يوم العودة لأحضان الوطن بعد طول غربة ،يوم الشفاء من مرض ، يوم العثور على حب حقيقي يوم الخروج من السجن ، يوم التخلص من عبئ مسؤولية ثقيلة ، يوم العثور على حبيب مفقود ، يوم استرداد حق مسلوب ...مهما اختلفت طبيعة يوم العمر وسببه إلا أنه يثير نفس العواطف ويضخ النشوة و السرور في النفس ويجعل أي شيء آخر نحققه ونعيشه دون قيمة، لا يثير فينا أي شعور بالرضى والغبطة ، مشاعر ندخرها لذلك اليوم بالذات حيث تصل فرحتنا لأقصى مداها .

إنه أسعد يوم في حياتنا.

أو هكذا نظن .

ذلك اليوم جاء أخيرا في حياة نجية ، بعد طول انتظار ، لم يكن يوم زفافها فقد مر على زواجها أكثر من عشر سنوات و لا يوم تخرجها فقد ودعت الدراسة منذ الأزل و لم يكن يوم صارت فيه أما فهي كذلك منذ زمن ولكن لأربع بنات وهذا ما أعطى أهمية قصوى لهذا اليوم ، أخيرا صارت أم الصبي ، حصلت على هذا اللقب الغالي و التتويج الذي لطالما حلمت به و تحرقت له ،حققت انجاز العمر فكان مصدر فخر وفرحة عارمة فاقت ما شعرت به طوال حياتها،هذا اللقب بعيد المنال يفوق أي لقب آخر حتى صفة الزوجة فهي قد تزول و الزوج قد يهجر زوجته

و يجردها منها أما لقب أم الصبي فهو أبدي ، شرف دائم لا يلتغي و لا ينتزع ،يضمن لنجية إجلالا و هيبة على مدى العمر لا قدرة لأحد على سلبها إياه أو حتى مشاركتها فيه كما يمكن التشارك في لقب الزوجة .

أخيرا شعرت بنشوة النصر وشغف التفوق و الخلاص من جحيم اكتوت به لسنوات نظرات نساء العائلة و غمزا تهن المليئة بالاستهزاء و الانتقاص ، نظرات تشعرها انها امرأة ناقصة من درجة أدنى مما جعلها تحتقر وتزدري نفسها و تشعر بعقدة النقص من مثيلاتها اللاتي انجبن صبيانا ، لذا دأبت على تجنب التورط في العراك مع أي من جاراتها أو قريباتها لكي لا تسمع معايرتهن لها بأنها لم تنجب سوى زمرة من البنات و فشلت في انجاب صبي ونعتها بأم البنات ، لقب كان كسكين يغرز في

قلبها كلما سمعته و يدخلها في اكتئاب عميق ، حتى زوجها كان يتلذذ بإذلالها عند أي مشاجرة بتعليق مبطن، كلام تقف امامه عاجزة عن الرد ، يحطم معنوياتها و يلجم لسانها.زيادة على خيبة الامل التي تحط عليها كل مرة تنجب فيها بنتا ، حدث يعمق شعورها بالخزي امام نفسها وزوجها و كل معارفها الاقرباء و الغرباء كلهم يتحولون لأعداء ألدة وإن ابتسموا لها و هنئوها مجاملة أو نفاقا كانت تهانيهم سيوفا تطعنها فتشعر أنها فريسة مستضعفة ،مستباحة لألسنتهم و غمزا تهم ، رغم جمالها و مهارتها كربة بيت ميسورة الحال .كل ذلك لاقيمة له أمام هذه الوصمة.

ومع كل بنت تنجبها كانت تدنو بها لدرجة أقل و تضاعف شعورها بالحقد و السخط على الحياة وترى في مولدتها نقمة وابتلاء يجعل الأمل يتضاءل والحلم يبعد اكثر .

كانت إمراة متدينة مواظبة على أداء الفرائض بانتظام و دأب ،دائمة التضرع الى الله لينعم عليها و يرحمها مما تعانيه ثم سرعان ما طرقت بدافع اليأس عوالم الدجالين و المشعوذين علهم يفكون نحسها .

مشوار طويل من المعاناة و المرارة اليومية جعل هذا اليوم أسعد يوم في حياتها وكأنها جارية تحررت ، ملكة توجت ،صارت امرأة بكل معنى الكلمة ، في منأى عن الانتقادات و الاستهزاء . أخيرا صار بإمكانها رفع رأسها بكل تكبر و كرامة دون شعور بالدونية و العجز وكل المشاعر السلبية التي كوت أضلعها و سرقت النوم من عينها

عودة للأعلى

لليال لا تحصى .أخيرا ملكت السلاح الذي يحصنها من نظرات الأخريات و سخريتهن و احتقارهن لها .

شعرت أنها ولدت من جديد و تنفست الصعداء حتى ملامحها تغيرت ، ارتسمت عليها العزة والقوة و الزهو و انبثق بريق في عينيها و احساسها بالدونية تحول لشعور بالفوقية.

كانت غرفة المستشفى ممتلئة بالنساء اللاتي أنجبن يومها . إحساسها بالفوز غير طعم الهواء الذي تتنفسه و سرعان ما هلت بشائر الوضع الجديد ، حيث كانت الوحيدة في الغرفة التي انجبت صبيا ، ضمن المنجبات اللاتي نظرن إليها بحسد و غل تعرف طعمهما جيدا ، فيما قال أحد الآباء بأنها الفائزة بالبطولة .إطراء و تشريف لطالما تحرقت له ، امتلئ عقلها بغرورو نشوة ، فصارت كالطاووس مغترا و متفاخرا .شعور لا يوصف و لا يقدر بمال ، يملأ الانسان بمزيج ساحر من القوة و الاعجاب بالنفس .أيقنت عندها أنها مقبلة على أيام ملئها الفرح والبهجة ،أيام الحسرة و الضعف ولت بلا رجعة فاستبشرت و فتحت ذراعيها لا ستقبال ما تهدي لها الحياة من مسرات و هناء . حان الوقت لتأخذ نصيبها من السعادة.إحساس ما لبث أن تحقق فكانت الايام التالية كلها تهاني و مديح للأم ، فعوملت كنجمة تنهال عليها عبارات المباركة ، وتبدلت نظرات و نبرات السخرية و التشفي الى الاحترام والثناء ، كما تلذذت نجية و هي ترى هذا التغيير في العيون و الألسنة فاستمتعت و تمعنت في تصفح العيون

دون حرج أو خجل بعدما كانت تعجز عن النظر في العيون و تشعر بالخزي مما يلوح فيها .حتى الهدايا اختلفت صارت أغلى وأثمن .

دامت الافراح و الاحتفالات و البسمة لا تفارق الوجوه و أصوات الزغاريد لم تنقطع من البيت لأيام .

سمي الصبي علي وصار محط الانظار، الفتى المدلل الذي أدخل الفرح للبيت و أنزل البركة على عائلته و أزال العار من على وجه والديه ، انهمكت الأم في رعاية إبنها الذي رأت فيه اكثر من مولود خلق فيها شعور الامومة ، رأت فيه مخلصها ، تاجها الذي يزين رأسها و يفرض على الناس احترامها .

أما الأخوات فأدركن بفطرة الطفولة ، تغير الحال و أن هذا المخلوق الصغير ليس مجرد طفل آخر يزيد عددهن ويلقى ما لقين من مشاعر أمومة و أبوة و رعاية و إنما استوعبن أن له امتيازات و مكانة تفوقهن و حجم الفرحة و السعادة التي فجرها لم تحدثها أي منهن .شعرن فجأة أنهن أقل شأنا بسبب جنسهن و بدأت تتسلل داخلهن بذرة شعور بالنقص و ازدراء النفس ، استشعرن فطريا أنهن أبناء من درجة أدنى ، لاسيما أن معاملة الأم لهن تغيرت ،أضحت تمضي وقتا أطول مع أخيهن و نادرا ما تلتفت لهن كما صارت توكل معظم أعباء المنزل إليهن ، كي تتفرغ لرعاية إبنها ، سرعان ما عرف إحساس الغيرة و الحسد طريقه لقلوبهن الخصبة من ذلك المخلوق الصغير الذي استأثر بكل الاهتمام و الدلال.شعور تبخر سريعا لإدراكهن أنه أعلى و

أرفع مكانة منهن ، فكن يشعرن بالغيرة من بعضهن و يتشاجرن فيما بينهن و ينزعجن عند تمييز أي منهن على الاخرى أما فيما يخص علي فقد كن يلزمن الصمت و يستسلمن بادعان مهما شعرن بتفضيله عليهن .

تعاقبت الايام ثم السنين و صار المولود طفلا بدأت ملامح شخصيته تتجلى بمرور الوقت ولكن لم يبرد شغف الأم وزهوها على العكس تحول حبها للإبن إلى هوس ، فصارت تخشى عليه من كل شيء كالعين و الحسد ، كان كنزها الثمين رفع شانها بين الناس خصوصا بنات جنسها و عزز مكانها كزوجة فكان كصمام الأمان الذي يقيها غدر الزوج .

عدة مرات عندما تعجب امراة بعلي و تثني على جماله و عفويته تنظر اليها بامتعاض و نفور و تردد كلما تعرفه من آيات قرآنية و حين يمرض تظل تشكو من العين ونظرات الناس الخبيثة و المليئة بالحسد و الشر .

بدأ علي يشعر بغريزته و فطرته البريئة أنه مميز عن باقي أخواته فكل طلباته مجابة دون نقاش و مهما فعل من شغب و كسر و وسخ لا يوبخ أو يضرب كما يحدث مع شقيقاته الاتي يقابلن بعلقة عنيفة مصحوبة بشلال من الشتائم عند أصغر خطأ أو سوء تصرف يصدر منهن .

مضى الزمن ودخل علي المدرسة ، خرج من عالم البيت الذي توج فيه ملكا مرفها الى عالم آخر حيث أنه طفل ضمن اطفال من ابناء جنسه لا ميزة له عليهم

فيوبخ و يضرب عند أي شجار فلا ينفعه جنسه .تغير المناخ على علي مما جعله يدرك تفوقه و سلطته داخل المنزل فصار يعوض ما يحصل معه داخل مدرسته و في الشارع ، إذ يمعن في ممارسة سلطته و التمتع بامتيازاته و بات شعور الفوقية يتجدر فيه ، فكلما تشاجر في المدرسة أو وبخ من طرف مدرسيه عاد للبيت و فرغ سخطه و غضبه على إحدى أخواته متحججا بأي شيء ، كانت رؤيته لأخته مستسلمة و عاجزة عن مجابهته يغذي غروره و يشعره بنشوة تمسح كل ضيق و استياء .

لم يمضي وقت طويل حتى مل من الدراسة و ضاق بجوها مفضلا اللعب و اللهو مع أصحابه و نفر من الدروس فصار من تلامذة القسم الكسالى المشاغبين خصوصا بعدما تصادق مع زمرة من المشاكسين صار واحدا من شلتهم.

لم يستوقف الأم أو يقلقها تدهور علاماته و عزوفه عن الدراسة مقنعة نفسها أنه مازال صغيرا وعلاماته لن تنفعه في هذا السن بل عليه الاستمتاع بحياته دون موانع لذا كانت تمتنع عن توبيخه و لومه .كيف تفعل وهو ابنها الوحيد .صاحب الفضل عليها ، تحفتها و ابداعها، مصدر الاعتزاز و الفخر الذي تكن له الامتنان على ماهي فيه .

والده من جهته ، برغم فرحه الشديد بولادته و حبه العارم له إلا انه كان غير منخرط في ما يجري معه و أخواته ، وكان يجهل حتى المستوى الدراسي الذي يدرسون فيه .

ذات يوم وصل الى المنزل ظرف من المدرسة طلب فيه حضور ولي الامر على وجه السرعة ، تجاهلت الامر ومزقت الظرف و لم يمر أسبوع حتى وصلها ظرف آخر .قررت الذهاب هذه المرة لبست جلبابها و هي تتساءل عما حصل فهي لم يسبق أن وطئت باب المدرسة إلا لتسجيل أبنائها .

دخلت الأم المدرسة ثم اقتيدت لغرفة المدير وهي تتساءل بقلق و تحفظ .

جلست امام المدير الذي سرعان ما اخبرها عن علي ، بوجه مصدوم غير مصدق ، علمت انه مع لفيف من رفاقه احضروا كلبا مفترسا لإخافة الفتيات و ارعابهن عند باب المدرسة كما أنه استنفد فترات غيابه و كل مدرسيه يشتكون من وقاحته ، و نتيجة كل ذلك تم منعه من دخول المدرسة حتى يأتي بولي امره و لكن دون جدوى لذا اضطررنا لإرسال انذارين للأسرة دون رد.

تفاجئت المرأة و ارتسمت عيها الدهشة ، ارتبكت و توترت بسبب الصدمة و الحرج معا ، لم تصدق ان ابنها متورط في كل ذلك و هي مغيبة لاعلم لها بأي شيء .كيف أنها لم تشك أو تستشعر أي تغير ، لقد كان يخرج كل يوم موهما إياها بذهابه للمدرسة دون تلكأ .

ارتبكت نجية ولكن تمالكت نفسها و ردت على المدير المتذمر من سلوك الابن بثبات معربة عن استغرابها مما تسمع ولم تجد بديلا عن الدفاع عن ابنها وعن

سلوكه الحسن داخل المنزل ، فهو هادئ و مطيع وما تسمعه أمر لا يصدق .وأن السبب هو رفاقه الاخرون الذين زجوا به معهم و ورطوه في شغبهم .

احراج كبير شعرت به لم تجد بدا من اخفاءه بانكار كل ما سمعت بنبرة كلها استغراب و تكبر محاولة جهدها تحويل ابنها لضحية جو المدرسة الفاسد .بعد دقائق قام المدير باستدعاء المدرسة التي انهالت على الأم بعريضة اتهامات عددت فيها فصول شغبه و افعاله المتسمة بقلة الادب و سوء التربية.

العبارة الاخيرة اشعلت نار نجية و جعلتها تشتشيط غضبا و فقدت السيطرة على اعصابها و انفجرت في وجه المدرسة وقفت بانفعال و ارتسم على وجهها الحنق و العدائية :

–ابني ولد مهذب و هو مثال لحسن الادب ، صبي حسن الخلق ليس صعلوكا ولا متشرد هو ابن عائلة محترمة .

–ليس هدا ما يبدو عليه فسلوكه يحتاج لاعادة نظر هو يسير في طريق غير محمود

– مع انه في المنزل لا يصدر عنه أي شيء والكل يشيد بحسن سلوكه و اخلاقه

-هناك مشكلة حقيقية والانكار لن يفيد ودورنا ان نتساعد ونتعاون لنقوم سلوك التلاميذ و المدرسة شريك للاسرة في تربية اولادها و عليها مسؤولية تنشئة جيل صالح لذا من واجبنا ان نتدخل عند اللزوم .

كلام موزون وسديد لكنه نخبوي و متعال ،كلام مثقفين في منابر و مؤتمرات علمية و ثقافية أما نجية برغم فهمها لمضمون الكلام مع ذلك كان غريبا على مسمعها وثقيلا على نفسها ، استشعرت فيه اهانة و استعلاء و كلام مستورد لم تستصغه .

تابعت المعلمة كلامها بإرشادات للأم لتقويم سلوك ابنها ، فنصحتها بضرورة تتبعه و التأكد من مجيئه للمدرسة و إحضاره للوازم الدرس من كتب و دفاتر و مراقبة كل تحركاته وخصوصا إبعاده عن أصدقاء السوء ومنعه من الاختلاط بهم .

كلما وصلها انها في موقف ضعف ، وضع لم ترضه لنفسها ومع دلك فضلت الصمت و الامبالاة وبلعت كل ما قيل دون هضمه أو استيعابه و اكتفت بعبارات فضفاضة و مراوغة :

ان شاء الله ،الصبر ،انهم مجرد اطفال ...

عبارات ارادت من وراءها استهلاك الوقت و مسايرة المدرسة بشكل ظاهري كمستمع مل وهو ينصت لمحاضرة طويلة و مضجرة لا تثير اهتمامه فيتظاهر بهز رأسه مدعيا الاهتمام وهو ما لمسته الاستاذة المسترسلة ، فتوقفت وانسحبت بعدما ادركت عبث كلامها . انتهى الأمر بتوقيف علي عن الدراسة لعشرة أيام .

عادت نجية للبيت بعدما خلصت من مشوار المدرسة الثقيل و هي تجتر ماحصل و تتذمر من تلك المدرسة التي لفتها شكلها اكثر من كلامها فراحت تتمتم لنفسها :فلتستر نفسها قبل ان تنتقد الاخرين .

لفتها طلاء أظافرها و شعرها المكشوف و حاجبيها المشذبين و لباسها العصري ، ولكي تقوم بدور الأم على اكمل وجه انفردت بعلي مستغلة غياب الاب فلم تشأ ان يعرف ما حصل لسببين الاول خوفها من ردة فعله اتجاه علي واتجاهها بالخصوص فهو سيتهمها بالإهمال و التقاعس عن رعاية اولادها وامضاء وقتها في الثرثرة و النميمة مع نساء الحي وان كان هو يمضي نفس الوقت في المقاهي مع رجال الحي .

السبب الثاني هو معرفتها بطبع زوجها الذي يعتبر الابوة هواية و منصب شرفي لا يلزمه بأي مسؤولية فيتقاعس عن الاهتمام بأولاده و الغرق في تفاصيل حياتهم ، لذا لم تجد جدوى من إخطاره نظرا الى لامبالاته و لن تجني شيئا سوى إعطائه ذريعة و سلاحا يستعمله ضدها عند أقرب مشاجرة خصوصا وأنها دائما ما تشتكي من الحمل الذي أثقل كاهلها و قيامها بأمور المنزل لوحدها و كأنها أم عزباء ، فلا تجد منه سوى الاستهزاء و تحقير دورها ، مشكلة كهذه ستدفعه للتمادي .

السبب الحقيقي ما تشعر به نحو زوجها أو ما لا تشعر به ، احساس الغربة الذي يكمن في داخلها نحوه ،كان زوجها و انجبت منه أولادها ولكن في اعماقها

كان رجلا غريبا عنها كل ما تريد منه هو أن ينفق عليها واطفالها و يكمل صورة العائلة أمام الناس و لكن هو كشخص لم تكن تحبه أو تريده لا بل أحيانا كانت تشمئز منه حتى حين تعاشره كانت تؤدي واجبا ثقيلا تعجز عن رفضه مقابل المال الذي تحصل عليه منه ولخوفها من عاقبة تمنعها عند الله، كان الخوف والاحتياج دافعها وليس الرغبة ، أحيانا كثيرة كانت تنعل حظها التعيس الذي أوقعها فيه و لكن الزواج بالنسبة للفتاة قدر لا تختاره ولا ترفضه، عاجزة عن تغييره فاختارت ان تنفصل عنه ضمنيا لذا كانت تغلق على نفسها و تسير حياتها دون إشراكه في أي شيء ، رغم تبرمها وتذمرها من لامبالاته ولكن في داخلها كانت مرتاحة لوحدتها و انعزالها عنه فتكتم عنه همومها و مشاكلها ، أحلامها و هواجسها .لم تجرؤ يوما أن تبوح له بما يوجعها أو تبكي على كتفه أو تقرب المسافات بينهما كما لم تكترث يوما بما يحسه و يشغله أو تكترث بما يخفيه و يكتمه من أوجاع وهموم لم تكن ترى فيه سوى عيوب مجبرة على تحملها مقابل مال تعيش به و قدر ونصيب لا تملك ان تعارضه.

دخلت إلى الغرفة و أغلقت الباب ، لم تسمع بناتها شيئا فلم يصدر من الغرفة أي صوت أو ضجيج مما اثار استغرابهن فلم يكن ذلك من شيم أمهن ، هي دائمة الصراخ عند أدنى مشكلة و سوء تصرف من قبل احداهن ، تنفجر في وصلة معايرة يصل فيها صوتها لطبقات اوبرالية ، مستعينة بقاموس من الشتائم ، في تلك المواقف لا تستهدف التوبيخ و التقويم فقط ولكن هدفها الأهم هو التفريغ و التنفيس عما يجثم

على صدرها فتشتكي من سوء حظها في الحياة وتعاستها من بين كل النساء ببنات لا يجلبن لها سوى الهم و المعاناة ، وصلة تبدأ باستهداف واحدة منهن لتشملهن جميعا فلا تملك الفتيات الاربع مفرا سوى الاستسلام في صمت و خنوع ، فالنقاش و التبرير أو حتى الترجي لا يجدي نفعا بل يكون كالوقود الذي يشعل غضب الأم اكثر و يطيل مدته.إذ تصبح نجية كمدفع رشاش يطلق القذائف ، لا يسمع و لا يسع أمامه سوى الاختباء و الاحتماء .فكن يصمتن دون ابداء أي رد فعل لا بالكلام ولا حتى بنظرة استنكار و انزعاج فهذه رفاهية لا حق لهن فيها .واي ملمح إنزعاج كان يستفز الأم أكثر و يدفعها لما هو أبعد من سخط شفهي .

كلام بذيء و نظرات عدائية و نبرة محقرة وصوت صادح يسمع البعيد و الداني ، فترة تكون كالكابوس بالنسبة لهن يسمعن سبابا و يتجرعن إذلالا و خسفا وهن جامدات ، صامتات دون تعبير ، يكتمن أي شعور بالضيق والنكد لا بل عليهن طلب السماح و العفو ، دون قدرة على التنفيس عن نقمتهن بعد جرعة السب و القذف ، فالخروج وقتما شئن ، عندما يضيق بهن الحال و تختنق روحهن ، هو امتياز حرمهن منه جنسهن ، فلم يملكن سوى السماع بصمت وطاعة حتى تفرغ الأم وتمل و تصب ما تحمله من طاقة سلبية فتكون نوبات الغضب كعلاج و مسكن يخفف عنها و يهدئها رغم امتعاضها الظاهر فقد كان يخفي راحة و سعادة قلما تجدها.

مرت أيام و عاد علي إلى مدرسته بعدما مرت مدة فصله و عاد لدروسه دون أن يعلم الاب ما يجري و دون رغبة منه في ذلك ، عاد للمدرسة على مضض، حزينا لانقضاء عطلة استمتع بها خصوصا أن أمه أوصته بالتغيب عن المنزل كما لو أنه يدرس حتى لا يشعر أبوه بغيابه .

أمر استمتع علي بإطاعته .عاد بعد ان استمع لإرشادات ونصائح أم حنون ، بصوت عذب و هادئ و نبرة ودودة ،اكتفى أمامها بهز رأسه .رد فعل إسبشرت الأم خيرا به و تأملت ان يتغير ابنها و ينصلح حاله .فترة فصله غيرته بالفعل و علمته درسا استوعبه جيدا وهو تخلصه من الخوف إزاء أي عقاب ، وان ما ظنه امرا جللا يهابه الكل هو هين ويسير لا بل ممتع و مسل ، فصارت جرأته أكبر و إندفاعه أقوى و خوفه أقل ، دون خشية العواقب أو تحسب لأي رد فعل .

عاد بعدما صار أجرء غير آبه بتوبيخ مدرسة أو غضب مدير ولم يعد الفصل أمرا يخشاه ، بل أملا و إنجازا يسعى لتحقيقه، مكافأة وليس عقابا، عاد متفاخرا بنفسه أمام زملائه وقد فعل ما يرتعب الاخرون عن فعله خصوصا بعدما ما فعلته أمه وما لم تفعله، تأكد مرة اخرى أنه ذكر له إمتيازات و حصانة تعفيه من أي عقاب و تعنيف بعكس شقيقاته و ما يلقينه عند أقل خطأ ، بشكل متزايد ترسخ شعوره أن إختلافه عن أخواته في الجنس يميزه عنهن في كل شيء فلما لا يستفيد و يتمتع بذلك، كما أدرك أن حب أمه له لاحدود له وهو نقطة ضعفها .

رسب تلك السنة ونقل لمدرسة أخرى أقل تزمتا فاجتاز السنة تم التي بعدها فصار يجتاز سنة و يرسب في الاخرى حتى طالت فترة إقامته في المدرسة و صار واضحا جليا أنه لن يفلح في طريق التعليم ولم يجد الوالدان بدا من إدخاله مدرسة خاصة لمحاولة تدارك الوضع لا سيما بعد ما علما أن نجاحه مضمون فيها فهي تتسم بالتطور والاحتراف و تسعى لإرضاء التلاميذ و أولياءهم بتضخيم علاماتهم و تعويض النقص و القصور في الدراسة بأي ثمن.

تعاقبت السنين و نفخت الاجسام و اخشوشنت الأ صوات ، كبر علي و صار على أعتاب الرجولة ، شابا يافعا ذو جسد مهيب و صوت صادح ، زاد طوله ووزنه و زاد نفوذه داخل المنزل وصار هو الآمر الناهي ، بعدما كان الطفل المدلل ، صار رجل المنزل ، صاحب السلطة المطلقة.أخواته كبرن وكبر الخوف داخلهن فصرن يخشينه أكثر مما يخشين والدهن و يحسبن حسابه في كل تصرفاتهن رغم أنه أصغرهن .يبيح ويحرم ما يلبسن و ينتقد أي تصرف لا يعجبه ، يوبخ و يعنف أي أخت من أخواته ، يشتم و يهين ، ينظر باحتقار و ازدراء يقابل بانصياع و استسلام مهزوم .ذات يوم قام بانتزاع هاتف أخته كريمة وهي تتحدث وراح يبحث فيه ،حين رأته ثارت غاضبة و محتجة و نعتته بقليل الادب و المتطفل ، صدمته كانت أكبر من صدمتها ، لم يصدق ما قالته فانهال بكفه على خدها ، ثم شد شعرها بغل و نعتها ببعض الصفات النابية .

كان ذلك الحادث رغم بساطته نقطة فاصلة و مرحلة تحول في حياة العائلة ،تدخلت الأم و فضت الاشتباك بين الاخت الباكية و الاخ الثائر . سمعت رواية كل منهما قبل ان تستدير نحو ابنتها و تنهرها و تأمرها بالكف عن البكاء و إلا صفعتها و كسرت اسنانها لتبكي عن حق ،ثم أمرتها ان تغرب عن وجهها و تنزوي في غرفتها ، انصاعت لأمر لا تملك سوى الانصياع أمامه .وقبل ان تذهب رمقها علي بنظرة لم تنسها .نظرة استهزاء و احتقار و ابتسامة ازدراء آلمتها أكثر من الصفعة .دخلت الى غرفتها في حين ان علي كان له امتياز الخروج من المنزل متى شاء و للمدة التي يريدها أما الفتيات فلم يكن لهن سوى الغرفة التي ينزوين فيها ، حيث يقمن باجترار أي إساءة أو إهانة يتلقينها فالخروج من المنزل أمر جلل كطلب تأشيرة عبور .سرعان ما عاد الاب و أحيط علما بما حصل و انزوى مع زوجته في محادثات و مشاورات لم تدم طويلا قبل أن يخرجا لأولادهم ببيان هام ، اخد الاب عصى و انهال على كريمة بضرب مبرح ، وقفت الأم وهي تشاهده ببرود و جمود فيما الاخوات ارتسم على وجوههن الرعب و العجز ، صرخت الفتاة بأعلى صوت طالبة العفو و الرحمة دون جدوى .فيما انهمك الأب بضربها وهو يهددها بأن هذا ما ستحصل عليه اذا كررت ما فعلت وأثارت ضجة و فضيحة وصلت للجيران . انتهى من ضربها بعدما تعب حتى صار يلهث ،التقط أنفاسه قبل أن يكمل و هو ينظر لبناته :

-من اليوم فصاعدا علي هو رجل البيت ، هو الحاكم الناهي و عليكن احترامه و إطاعته دون نقاش، هو مكاني و له كل الصلاحيات، أي منكن تجرؤ على مخالفته و عدم احترامه سأكسر عضامها .

قال هذا بنبرة صوت مفزعة كلها ثقة و حزم و بعينين جامدتين تمتلئان قسوة، تعابير جعلت البنات يفطن أن هذا ليس كلام لحظة انفعال و إنما حقيقة لا مفر منها ، تعابير وجهه وحدها سربت الخوف لنفوسهن و جعلت أطرافهن ترتعد خوفا من علقة مبرحة كالتي تكبدتها كريمة .كانت أصغر شقيقاتها و مع ذلك أكثرهن ذكاء و شجاعة على عكسهن ، فقد كن خانعات ، خاضعات .أنهى الأب خطابه على مسمع الأم التي ضلت واقفة بصمت مؤيد و داعم لكل ما قيل ، وكانت هذه اللحظات نادرة ، أن يتفق الزوجان على موقف واحد . كانا دائمي الشجار على اتفه الامور و الجدال العقيم الذي لا ينتهي .لم يكونا يتواصلان أو يتناقشان بل كان يحاول كل منهما أن يثبت للآخر أنه مخطئ و أن الاخر هو الاذكى .ولكن الامر يتغير كليا فيما يتعلق بعلي كانا عندها يتفاهمان دون كلام و يتفقان دون جدال . و يحصل بينهما تناغم كامل .

بمجرد عودة الابن للبيت حتى هرعت إليه أمه و أطلعته بملامح منتشية على ما حصل و تزف اليه منصبه الجديد، بفخر و اعتزاز كسى وجهها ، سعيدة برؤية إبنها وقد صار رجلا صار جسمه ضخما مهيبا ، فرحت كما تفرح ام بتنصيب ابنها ملكا حتى و إن أخذ مكان زوجها ،تصرف الأب هذا حرره من مسؤولية كبيرة و عبئ ثقيل

فأصبح أكثر من أي وقت أبا صوريا مل من مسؤولية لم يحملها يوما و مشاكل لطالما تجاهلها فسلم الشعلة لخلفه و تقاعد من دوره كأب .أمر جلب السرور لعلي و هو متعطش لسلطة يفرغ فيها رغباته و يستخدمها لتغذية غروره .ترفعه عاليا دون حسيب أو رقيب ، مسؤولية مسلية و مريحة، الأمر و النهي ، إطلاق العنان لنوازعه و نوبات غضبه و تفريغ شحنات احباطه ، منصب كله عزة و كبرياء و كسل لم يكلفه الحصول عليه سوى كونه ذكرا.

في تلك الليلة خلد للنوم وهو منتش بوضعه الجديد : –ما أجمل أن تكون ذكرا خصوصا في منزل كله بنات ، تتحول إلى أمير، ولي عهد يحضى بالسلطة دون مشقة .والكل يخدمك، امتيازات و حقوق دون أي واجبات .في يوم الاحد بالذات ، تستيقظ متى شئت ،تعفى من كل الاعباء والواجبات الشاقة من كنس ومسح و غسل ، تفيق فتجد طاولة الفطور معدة ، تأكل و تنهض دون أي واجب ،يريحك من أي مساءلة ، تخرج وقتما شئت دون إذن وتعود حين يحلو لك لتجد وليمة تقدم لك ،يعطيك حصانة كحصانة مجلس الشعب الفرق أنك لا تفعل شيئا لتحصل على الحصانة لا مجهود ولا مال ،تخرج متى أردت تلبس ما تريد تعبر عن نفسك كما تريد

.

كان يستمتع وهو يرى اخوته يعملن بجد وشقاء مند بزوغ الفجر ، وكأنهن في معسكر إجباري ومن تتكاسل أو تتمرد أو تحاول تقليد أخيها الممدد على الفراش

يشاهد التلفاز تلاقى بوابل من التهجم ووصلة من السب والقذف وقد تمتد الى علقة ساخنة ، يتبعها موال محفوظ من البنات اكثر من أمهن التي تبدأ بتوجيه التوبيخ للبنت المقصودة ثم سرعان ما تشمل كل الفتيات ، لاعنة حظها السيء الذي رزقها بكسولات عاقات لا يساعدنها في شيء على عكس فلانة و علانة ، لديها بنات لا يدعنها تلمس الماء ولا تهتم باي شيء في البيت لا بل تجلس كأنها ضيفة ، وآخر مرة زارت إحدى صديقاتها لم تتحرك الأم من مكانها وقامت البنات بكل شيء .امهات محظوظات عرفن كيف ينجبن لسن مثلها حملت وانجبت بلا جدوى ، موشح اسبوعي كبرنامج ثابت، تواظب الأم لإخراجه عند أقل كلمة أو لمحة تذمر أو تقاعس .

سلطة الابن لم تكن جديدة، ما تغير أنه صار واضحا رسميا ، أما من قبل كان ذلك محسوسا و معروفا و لكن بشكل ضمني ،كان له الامتياز والاسبقية باستعمال التلفاز كما يريد ، كما كان معفيا من القيام باي واجب في البيت ولكن ذلك اليوم زادت سلطته و لم يعد نفوذه يقتصر على أخواته الأربعة و إنما شمل والديه ، فجأة انقلبت الادوار و صار علي يملك سلطة عليهما فأصبحا كطفلين أمامه ، يستمعان لتوبيخه و يمتثلان لأوامره دون نقاش بكل اذعان.

حتى حين تقدم شاب لخطبة فاطمة الابنة الكبرى كان رأيه هو الحاسم و موافقته كانت مفصلية و أهم من راي أخته نفسها .أما سعادة الأم كانت لا توصف خصوصا بعدما بدأ الشعور باليأس و الخوف يتسلل إلى قلبها ،الخوف على بناتها أن

يصبحن عوانس يجلبن لها العار و يجثمن على صدرها فجاء زواج فاطمة كأول الغيث . جزء من هم سينزاح عن صدرها و يخفف مصاريفها ويبشر بانزياح الاخريات ، فقد كانت مناصرة لتزويج البنت لأول عريس يتقدم لها حتى وإن لم يكن مثاليا ، الرفض قد يبعد العرسان عنها و أخواتها ،كما انها ليست فائقة الجمال لتتمنع وتترفع ولو أنها فلحت في دراستها ولكن ما الجدوى من الشهادة ، العلم لن يزوجها ، المهم أن العريس صاحب دخل دائم يؤهله لإطعام زوجته حتى لوكان معيوبا أو معلولا . المهم في الرجل مستواه المادي أما أخلاقه و شكله فهذه شكليات و هي مسؤولية الزوجة فعليها أن تصلح طبعه و تحسن خلقه وإن فشلت فعليها تحمله .أما بنات نجية فكان لهن حسبة أخرى فقد رأين في الزواج فرصة للهروب من شرنقة تضيق عيشهن و تكبل حريتهن و تكبح جماحهن رأين في الزواج شهادة ميلاد ووثيقة حرية ، سيصبح لهن بيت يملكنه .حيث يشاهدن التلفاز بحرية ، ينمن وقتما يشئن بعدما كن أشبه بالجواري خاضعات مقابل أكلهن و شربهن ، بيت سيطلقن فيه العنان لأهوائهن مهما كانت منطقية أو مجنونة دون قيد أو ضغط، ،أحلام صغيرة حلمن بها كانت بالنسبة لهن رفاهية حرمهن منها جنسهن ، اخيرا سيكون لفاطمة منزلها الخاص فهي مند سنوات تحلم بيوم مغادرتها المنزل ، رغم شكلها الهادئ و الوديع لم تكن تثير المشاكل وتتقبل كل ما يحصل دون أدنى تذمر أو إستياء ولكن في داخلها كان هناك بركان خامل ، جبل من الحسرة و عدم الرضا و سخط مكتوم جعلها تتحرق لليوم الذي تخرج فيه من سجن ترفضه رغم تآلفها معه .ستزتاح من الاملاءات و التقاليد ، لم تنبهر فاطمة

بالعريس بقدر ما انبهرت بالزواج و ما سيوفره لها ، اندفعت بعنفوان و اطلقت عنان خيالها لينسج عالمها الجديد الوردي ، عالم أدركت بسرعة انه سيظل حبيس خيالها بعدما ايقنت أنها بزواجها لم تقم سوى بتغيير السجان و انتقلت من سجن الى آخر. توالت الافراح وراحت بنات نجية يغادرن المنزل الواحدة تلو الاخرى بنفس الترتيب الذي دخلن به ، أمام فرحة أمهن العارمة و غبطة أبيهن لتخلصه من همهن المادي والمعنوي و مشاحناتهن .غيابهن ترك هدوءا و سكونا في البيت و تقلص سكانه الى ثلاث أشخاص لا يجتمعون إلا للأكل ، صار علي يمضي معظم وقته خارج البيت لا يعود إلا ليأكل و ينام ، رغم فرح الأم بتزويج بناتها لكن كانت تفتقدهن كل صباح حين تجد اعباء المنزل متراكمة أمامها و هذا ما دفعها لاستقدام خادمة تقوم بما كن يقمن به ، كانت فتاة طرية في الخامسة عشر من عمرها ، ممتلئة الجسم ، بيضاء البشرة ، تفيض انوثة ذات شعر منسدل و عيون واسعة وعسلية كحبة فاكهة طازجة ، جاءت من احدى القرى .فضلت نجية فتاة من قرية بعيدة برغم تطوع جاراتها بجلب خادمة يعرفنها ، لكنها رفضت الفكرة كليا لخوفها من خادمة تفشي اسرارها و تنشر خصوصياتها للأخريات كما تفعل هي ، كذلك خادمات المدينة صعاب المراس ، واعيات و خطرات يصعب السيطرة عليهن ، أما فتيات البادية فهن لازلن مغيبات ، طيعات .

وجود الخادمة كان له أثر كبير عل المنزل خصوصا على علي ، سرعان ما تغير أسلوب حياته فقلت فترات غيابه عن المنزل و صار مواظبا على احترام مواقيت الاكل ومقبلا على المكوث في البيت. كان وجود الخادمة تجربة جديدة و مثيرة بالنسبة له ، إذ لأول مرة يسكن معه فرد من الجنس الآخر ، إمرأة غير أمه و أخواته ، امرأة يستطيع النظر اليها نظرة رجل ينمو بداخله ، مطلقا العنان لكل غرائز الرجولة و هرمونات الرغبة ويتفحص جسدها بدقة دون موانع أخلاقية .مما جعله يتربص بها ، يختلس النظر اليها و يستلذ بتفحص مفاتنها . متعة جديدة ومختلفة لم يختبرها من قبل ، لم يستطع مقاومة سحرها . نظرة واحدة إليها تفجر سيولا هامرة من مشاعر

و أحاسيس تجرف معها كل وازع أخلاقي ، فصار كالطفل المسحور بلعبة، خلف زجاج محل صارت هاجسه .

مرت ايام وأسابيع وعلي غارق و منتش بنعمة هبطت عليه من حيث لا يدري ، وألهبت شهوته ، أضحت وردة أو بالأحرى جسد وردة هاجسه و تحول شعوره نحوها الى بركان رغبة يغلي داخله و يطلق نيران شهوته من عينيه .حتى وردة ببراءتها و طفولتها القاصرة عن فهم وإدراك ما تضخه في عقله و كيف أن كل حركة تقوم بها تثير عاصفة في صدره و تلهمه لينسج مشاهد و مناظر تسيل لعابه ، حتى حين كانت تلمحه صدفة ينظر اليها كالمسحور ،كانت تشعر بالإطراء البريء و خجل يلون خديها ، هكذا قرأت نظرات سيدها .

توالت الأيام ، زاد هوس علي بالخادمة و لم تعد صورتها تفارق خياله ولم تعد النظرات تشبع غريزته التي توحشت و تطورت لما هو أبعد ، لم تعد نظراته المشتعلة و المستعرة تروي عطشه و تشعره بالنشوة و الاستمتاع التي استحلاها و أصبح يتطلع لما هو أكثر ،أراد لمسها ،تملكها و لكن كيف ؟ لما لا؟ ما لمانع ؟ والداه لطالما دللاه و أباحا له كل ما يريد دون محاذير ،لطالما منحاه صلاحية مطلقة دون سقف أو حد .ولكن ما يشتهيه الآن أمر مختلف و لكنه مثير و مشوق لا يقاوم و قد يكون انتحاريا ، لم يشغل علي أي وازع ديني ، أخلاقي أو انساني ،كلما شغله رد فعل والديه و خصوصا والده، برغم كل شيء هو رجل متدين و صارم لطالما غض الطرف عن كل تصرفاته و زلاته و لكن ما سبق لا يوازي هذا الفعل .

ضل يفكر في الامر و يقلبه في عقله لأيام و هو يترنح بين الاندفاع و خشية العاقبة ، يطوق لضوء أخضر يطلق رغباته المحبوسة ، قرر مصارحة أصدقائه الذين يستطيع مصارحتهم بكل ما يختلج شعوره من نوازع مهما كانت دنيئة ومخجلة ، معهم لا يضطر للتصنع و الادعاء بل يتعرى تماما دون أي خوف من حكمهم عليه ، استشارة أتت أكلها و بددت الحيرة التي استوطنت فكره ، و منحته جرعة من الجرأة و الاقدام الذي ينقصه ،كل أصحابه شجعوه على ذلك و زودوه بنصائح و شفرات ذكرية تعينه على ما يشتهي فعله ، أقنعوه أنه صار رجلا و واجبه ان يثبت رجولته و الخادمة مجرد فتاة لا قيمة لها وهو سيد البيت أما والده فسيفرح لرؤية ابنه قد صار ذكرا حقيقيا

يعتمد عليه .وراح كل منهم يحكي له عن مغامراته و علاقاته بافتخار و اعتزاز مستغربين كيف أنه لم يقم علاقة مع أي امرأة حتى الان حتى مازحه أحد أصحابه أنه صار عانسا ،كلمة اثارت ضحك الاصحاب و سخط علي فعاد الى البيت مشحونا بجرأة وعزم أسكت كل شعور بالتوجس .أقنعوه أن الفتيات البدويات يكن متعطشات لأي لمسة حنان و اهتمام فهن محرومات و مكبوتات ،كذلك أية خادمة تفرح إذا اهتم بها سيدها و التفت إليها تعتبر ذلك إطراءا و شرفا لا تحلم به ،كلام وجده علي منطقيا جدا ،كذلك دغدغ غروره و نفخ اغتراره بنفسه ،كان الكلام الذي أراد سماعه .فرأى نفسه كالسلطان و وردة جارية تنظر إليه بتقديس و هيام و تطير فرحا عند أصغر لفتة اهتمام منه تعيش مبتغية رضاه عليها و تذوب من نظرة منه .

عقد العزم و أطلق العنان لرغبته الجامحة و تجاهل أي صوت للعقل و المنطق ، لقد أصبح الأمر مسألة شرف و رجولة عليه اثباتها لنفسه وأصحابه و إلا صار أضحوكة لهم فهو ليس أقل منهم رجولة وبات الامر امتحانا عليه اجتيازه و خطوة إجبارية في طريق النضج و النمو ، وتصرف طبيعي لشاب في سنه ، مده أصحابه بشرائط جنسية ضل يتمعن في مذاكرتها بتركيز و اهتمام ، انتظر حتى يغلف السواد كل شيء و يحل الظلام و هو يتصرف بطبيعية منتظرا لحظة الصفر ، أخيرا خلد والداه الى النوم ، انطفئت الأضواء و ساد الصمت و السكون و ذهبت وردة لغرفتها منهكة بعدما فرغت من تنظيف المطبخ ، مستنزفة، ارتمت على سرير في غرفتها التي تبدو لها قصرا مقارنة

بمنزل والديها في البادية ، تلك الغرفة الصغيرة التي تجمع عشرة اشخاص و حيث عليها ان تتقاتل لتجد مكانا تبسط و تمدد جسدها فيه لتنام ، مساحة صغيرة لكنها لها وحدها فرأتها جناحا ملكيا لفندق فخم ، هنا شعرت لأول مرة أنها حرة وهي هائمة في هذا الحلم الجميل فجأة فتح باب الغرفة بهدوء وحرص شديد ، دخل علي و هو يتحسس و أغلق الباب ،هنا انتبهت وردة لوجوده و لكن قبل أن تلتفت ، انقض عليها ووضع يده على فمها لمنعها من الصراخ ، حالة من الرعب انتابت الفتاة ،حاولت بكل قواها الافلات من قبضة محكمة ، فصارت كفريسة ضعيفة أطبق عليها وحش مفترس ، ومع ذلك لم يكن أمامها سوى أن تقاوم بقدر ما تستطيع ، في معركة حياة بالنسبة لكليهما ، حاول بقوة عضلاته السيطرة على نوبة الجنون التي اجتاحتها ، يستخدم الشدة من جهة و من جهة أخرى يحايلها بكلام معسول محاولا تهدئتها و استمالتها . حاول استخدام اللين و العنف للوصول لمراده، صراع بين رغبة متجبرة و كرامة ترفض ان تنكسر ، بعد بضع دقائق من الصراع المتبادل و الشد والجدب ، دفعت وردة علي و أسقطته على الارض ثم اطلقت صرخة يائسة بصوت ليس لها سلاح غيره ، في لمح البصر جاء الوالدان المفزوعان ليجدا مشهدا لم يتطلب أي شرح أو تعليق .

في اليوم التالي جاء والد وردة من البادية بعد اتصال الاب به تحت توصية الأم ، بعدما صبت جام غضبها و سخطها على وردة و أعطتها علقة ساخنة مطعمة بمزيج من السباب ، متهمة إياها بأنها فتاة لعوب تسعى للإيقاع بابنها لتتزوج به ، و

بعدها تحدث فضيحة لتجبره ليتزوج بها، لؤم و كهن فلاحين يتخفى وراء مظهر براءة و سذاجة تعرفه جيدا ،وصل الاب ليجد الفتاة بانتظاره مع اغراضها ، اشتعل غضبا بعدما أعطته نجية تقريرا وافيا من اعدادها عما حصل ، مع ا إضافات و تعديلات ، فجر ابنته من شعرها وهو يلعنها لما تجلبه له من عار و خزي و هكذا انطوت قصة علي مع الخادمة لتصير ذكرى طبعت مراهقته وتبقى وردة حلما و هاجسا لم يستطع تحويله لحقيقة ، فتحصر و اكتئب كالصياد الذي تفلت منه فريسة لطالما تمناها فتمنعت وعجز عن الظفر بها لتصير عقدة يتذكرها بشجن و حسرة .

فريسة تستعصي عليه و تمنعه من التباهي والتفاخر بمهارته ، فالرجولة تقاس بعدد الضحايا التي يوقعها الرجل ، بعدد القلوب التي يحطمها فتصير لائحة كلما طالت ، زادته عظمة و فحولة ورفعت شأنه بين أقرانه كما لو أنه قائد جيش يتباهى بعدد غزواته وفتوحاته، فشل جعله يحرج امام اصحابه و يكون مادة دسمة لتهكمهم ، أما والده فقد فضل التغاضي عما حصل ، في حين رأت الأم ضرورة جلسة توعية لإبنها ،تفتح عينيه فالتورط مع فتيات كوردة قد يسبب له الكثير من المتاعب و نزوة كهذه قد تتحول الى كابوس أما والده فقد شعر بفخر عجز عن إخفاءه لأن ابنه صار رجلا لذا مده بنصائح رجالية عن كيفية تفادي أي عواقب سلبية ووسائل الوقاية لتجنب أي نتيجة غير مرغوبة كأن يصاب بمرض خطير ، نصائح افتخر بإعطائها له ، شعر أنه

حان الوقت ليلعب دور الاب ويزوده بالتوصية التي تحصنه ، خلاصة تجربته في الحياة .

كانت تلك التجربة نقطة تحول ، برغم انه لم ينلها ولم يحول شطحات خياله التي غزلتها غرائزه المستفزة ، إلا أن وردة كانت مغامرة لن ينساها أبدا ،غيرته و أثرت فيه ، فتحت له باب عالم الجنس الاخر و ما قد يحتويه من فتن تثير نشوة و استمتاعا من نوع آخر . فأدرك ان علاقة مع امرأة هي مفتاحه لعالم الرجولة و بدونها سيظل طفلا يسخر منه أصحابه ، المرأة هي تأشيرة دخوله لدنيا الرجولة ، ليس تفوقه و تحصيله للعلم، ليس اخلاقه و لكن علاقته بفتاة ، فصار الامر بديهيا كدخوله للمدرسة .و توصيات أبيه كانت تشجيعا مقنعا ،تحرج الاب من قوله صراحة، أدرك ايضا أن تفوقه لا يسري فقط داخل المنزل ،على أخواته و أمه وإنما على كل امرأة ، منذ ذلك اليوم استحلى تلك الهواية و صار يجد متعة في الخروج مع أصحابه والتحديق بأجساد الفتيات في الشارع ، متعة كانت تضخ هرمونات اللذة في دمه و تسيل لعابه و تزيل عنه أي شعور بالضيق و القهر وتبعث فيه شعورا غامرا من النشوة و المتعة ، طعم آخر من السعادة لم يختبره من قبل ، لم يكن مبعث سعادة غريزية فقط ، تأمل اجساد الفتيات وما يثيره داخله من عواصف و خيالات تنقله لعالم آخر و ترتفع به فوق واقع يكرهه و تنسيه كل ما يعكر صفوه ، لم تكن الشهوة الجنسية الدافع الوحيد الذي يستلذ به ، كان الشعور بالتفوق والتميز يرفع غروره لأعلى درجاته ويملأ عروقه بسيل

من العنفوان والكبرياء و حب الذات حتى صار يقول لنفسه :"ما احلى ان تكون رجلا ، يكفي أن تولد ذكرا فتتفتح لك أبواب الجنة ، تلاقى بالدلال والحب و توضع في مرتبة عالية دون عناء لا موانع ، لاخطوط حمراء ولا قيود ،كل شيء مباح و مسموح ، رغباتك أوامر و كلامك مصدق عليه مسبقا و لديك حصانة أقوى من حصانة نائب برلماني ، مجانية و أبدية بلا عناء ، الرجل دائما على حق في البيت و في الشارع .شعور بالزهو و العظمة يهون عليك أي مشكل" ،لذا كلما كان يشعر بالضيق من رسوبه في الدراسة أو شجار مع أصدقائه كلما ضاق صدره و اختنقت نفسه خرج ليمارس هواية تفرغ كل الحنق و التوتر و تنفس عنه كمنشط يحسن مزاجه و كان يبتهج و هو يتحرش و يعلق على كل فتاة تمر أمامه ،و هو يرى ضعفها و عدم قدرتها على مجابهته أو حتى الرد عليه، وكأنه مسئول صاحب سلطة يتفنن بإذلال من هم تحت سطوته و هم عاجزين ، خاضعين يكتمون سخطهم . ياله من إحساس بالعظمة و القوة ، مرت سنوات وهو غارق في الاستمتاع بشهوات الصبا و يقطف ثمار الرجولة و يغوص في ملذات ما تمنحه الحياة على طبق من ذهب موقنا أن العيش بالنسبة له هو الغوص في سعادة لا تنتهي دون أن يدفع أي ثمن.حتى جاء يوم كان كيوم الحساب .

يوم امتحان البكالوريا ، يوم تاريخي و مصيري أسود في حياة الاسرة ، لم يكن هذا سبب أهميته ، فقد مر بهذه التجربة من قبل ، لم تكن أول مرة يعيش فيها رهبة الامتحان و توتره و ضغطه النفسي لابل بفعل التكرار صار يوما عاديا لا يثير فيه

أي قلق و تشنج وإنما صار يقضيه بلا مبالاة و تنطيش تطور ليصبح سخرية واستهزاء بكل ما يحدث ، صرامة الحراس ، توتر التلاميذ ، صار يتعامل مع الامر باستهتار شديد و كأنه يرى مسرحية كوميدية .

كانت أهمية ذلك اليوم لأنها آخر فرصة بالنسبة له فهذه سنته الاخيرة في عالم الدراسة ، سنة يتحدد فيها مصيره إما النجاح أو الطرد ويودع الدراسة دون شهادة.علي لم يكن مغرما بالتعليم ولم يكن يهتم لتحصيل العلم، لم يجذبه تعلم قواعد الحساب وحل المعادلات أو معرفة نتائج تجارب كيميائية أو قصص الحروب والملوك ،معلومات مملة ترهق باله و تصيبه بصداع يعكس رفض جسمه و عقله لكل تلك الخزعبلات ، كان يكره المدرسة ويكن لها ضغينة خاصة لأنها تشعره بالنقص والفشل ، في هذا الميدان لم ينفعه جنسه و لاتقدم له الامتيازات دون جهد ، في هذا المجال كان عليه التعب و الكد والتضحية بساعات و أيام من حياته في الجد والعمل بتواصل، مهمة شاقة لا تحلو له و هو اعتاد على قطف ثمار دون عناء و يجني ملذات دون تعب ويحصد دون أن يزرع ، لهذا كان يعزف و ينفر من التعليم حيث يشعر بأنه يتساوى مع الكل و عليه العمل ليتميز عن غيره ، لماذا يجهد نفسه ويعطي من طاقته و عرقه للحصول على شيء يمكنه امتلاكه دون تعب .

على عكسه كان التوتر الاضطراب يتملك ام علي ووالده خوفا على وحيدهما من الرسوب الذي يؤدي به الى الطلاق مع العلم الى الابد و الحرمان من شهادة علمية

تجمل صورته و تزيد قيمته في المجتمع والعائلة. فالشهادة وإن لم تؤدي إلى عمل وتكن لها فائدة عملية فهي في حد ذاتها تعطي بريقا و صورة محترمة و هو أملهما في هذه الحياة فبدلا كلما في وسعهما للوصول به للمكانة التي يريدانها له ، رغم علمهما بعزوفه عن التعليم مند الصغر ، مع ذلك تمسكوا بهذا الحلم و رفضوا التخلي عنه ، فتارة أدخلوه مدارس خاصة غالية علها ترمم و تصلح مافسد وتارة أمنوا له أمهر المدرسين و أغلى الاساتذة ليعطوه دروسا خاصة لتبسيط و تسهيل العلم له ولم تفلح أي محاولة نقلوه لأكثر من مدرسة ليضمنوا نجاحه .مشوار طويل من المحايلة والمصاريف للوصول بابنهما الى المكانة المرجوة ، دون جدوى .وصل اليوم الاخير ، يوم الحسم يوم فاصل وفارق، مما جعله مربكا ومرهقا للوالدين، عاديا وروتينيا بالنسبة له.

لم تستسلم الأم وتقبل بالامر الواقع فهي تحلم لابنها بمستقبل واعد و مكانة لن تتنازل عليها مهما كلف الثمن وحبها له يمنعها من الاستسلام والهزيمة وقررت استعمال آخر ورقة في يدها لتصل بابنها حيث تريد، ففشله هو فشلها ونجاحه يعني نجاحها ، فكرت طويلا قبل أن تصل إلى حل مثالي سحري يغير الحقائق و يقلبها أرضا على عقب رغم أنه غير شريف ولكن الأمومة تبرر لها إتباعه .علي لن ينجح بمجهوده الخاص ، هذا أمر مؤكد لامفر من التحايل و الغش ،بررت ذلك بخوفها عليه فالضرورات تبيح المحظورات ، لايمكن أن تتركه يضيع ويضل، عليها انقاد مستقبله

والله أعلم بحالها وهو غفار رحيم وكل الناس تفعل هذا ،هذه الحجة الاخيرة كانت الضربة القاضية لأي ذرة شعور بالذنب .

اتفقت نجية مع طالب جامعي ليساعده ،كان من سكان الحي ،ظل عاطلا بعد تخرجه بتفوق ، فصار يقدم خدمات مجانية سرعان ما اصبحت مدفوعة الأجر ، لتتحول لتجارة منظمة .سيساعده بحل الامتحان عن طريق الهاتف النقال مقابل مبلغ مادي .لم يقاومه الشاب الذي قرصته البطالة ، ولو أنه في البداية تظاهر برفض النقود محرجا فهم جيران و علي هو أخ وجب عليه مساعدته بدافع الجيرة فالغش في تلك الفترة صار فعلا نبيلا في سبيل الله يجلب الحسنات ،ولكن مع إصرار الأم لم يجد بدا من التراجع بعد إلحاح عفاه من الحرج.

تم ترتيب كل شيء بدقة وتجهيز المعدات وخطة العمل كما تم تمثيل المشهد تحسبا لأي طارئ .

استيقظت نجية ككل فجر لتصلي صلاة الفجر كعادتها و عند فراغها من الصلاة بدأت وصلة من الدعاء استعانت فيها بكتيب من الأدعية حفظتها عن ظهر قلب ، كانت مهووسة بكتب الأدعية لا تنفك تبتاع أي كتاب جديد ، تشتريه وتحفظ كل دعاء بولع كبير ، تسلحت بجرعة إيمان مضاعفة وهي تقولها حتى امتلأت عيناها بالدموع، ليوفق ابنها في ذلك اليوم ، ونذرت أن تذبح عجلا تفرقه على المحتاجين إذا نجح ، طلبت ، ترجت من الله أن يجازيها على كل ما قامت به من تدين ، قيام

الليل ، الفجر التي تقوم له كل صباح صيفا وشتاء ، القران الذي حفظته .كل مجهودها أرادت ثماره في نجاح ابنها .حرصها الشديد قوبل بلامبالاة علي حيث ساير خطتها دون تذمر أو حماس، لم يعترض لكي لا يدخل في جدال ينتهي بمحاضرة مضجرة لا نفع منها فقرر مجاراتها ولو ظاهريا وهو تكتيك دأب عليه ، لاسيما أنه بارع في استخدام الهاتف النقال وحريص على ابتياع أجدد و أغلى النماذج من جهة للوجاهة الاجتماعية فقد صار المحمول وسيلة فعالة ليس للاتصال وإنما للرفع من شأن صاحبه وتحديد قيمته امام الناس ،ذلك الجهاز الصغير يعطي الانطباع الأول عن أي شخص ، يلمع الصورة ويضمن تقدير واحترام الاخرين ،يشكل تذكرة لعالم التحضر و الرقي كذلك كانت له فوائد أخرى جعلته الصديق الحميم لعلي و مفتاح لعالم الملذات الذي شغف به .

هوى و احترف رفقة اصحابه التقاط الصور خفية خصوصا للجنس الناعم ، شعور غامر بالنشوة و المتعة المحفوفة بالخطر وهذا ما يجعلها أكثر إغراء ا، كان يستمتع و هو يختلس غفلة ضحيته و يلتقط صورا لها دون علمها و إثارة انتباهها وكأنه يسرق منها لحظات و تعابير يقتنصها خفية، في الشاطئ ،في وسائل النقل، في الشارع وكلما كان المكان مزدحما و مكتضا كلما زاد التحدي والاستمتاع خصوصا أنه يشعر بامتلاك من يصوره ،يسرق لمحة منه ، صورة تكشف ملامحه و احساسه وقت التقاط الصورة ،تفاصيل شكله، تعابير وجهه ، وقد تفضح شيئا يخفيه فكان يتلذذ بتفحص

الصور بدقة يبحث فيها عما يخفيه الشخص فيشعر كأنه استطاع اكتشافهم و كشف غموضهم وخصوصيتهم رغما عنهم .كان ذلك يعطيه نفحة انتصار و رجولة لا تقاوم حتى صار موضوع منافسة بين الاصحاب لمن يقدر التقاط صور فاضحة أكثر و مثيرة اكثر ،كان يصور تعبيرا غريبا أو منطقة حساسة أو مفاتن فتاة دون لفت الانتباه ، أي شيء حميمي يشعره انه نجح في اختراق عالم ذلك الشخص واكتشف نقطة ضعف لديه ، كالجاسوس الذي يفرح باقتناص معلومة دون ان يكشف أمره.

انطلق الامتحان وبدأ المخطط في التنفيذ كما اتفق علي وأمه بعدما امطرته بسيل من الوصايا والإرشادات تظاهر بإتباعها ولكن نسيها كلها عند عتبة الباب، تركها تتضرع الى الله ممسكة

بسبحة وتعيد الادعية بشغف وتردد عبارات التوسل .

كان البرنامج واضحا ،عليه التقاط صور الامتحان وإرسالها للمتلقي المتفق عليه ومن تم الانتظار حتى يتوصل بحل الامتحان وما عليه سوى نقله على ورقة، كل هذا في سرية تامة و بحرفية شديدة لعدم إثارة أي شبهة ، عمل كان قد دأب عليه و تمرس حتى صار محترفا في هذا الميدان ،كل شيء صار على أكمل وجه ولكن فجأة انتبه احد الحراس الى ما يقوم به علي عندما سقط قلمه و عند انحنائه لمح هاتف المحمول يجلس عليه ، كان ذلك المدرس من جيل الشباب الحديث العهد بالتعليم، فكان مفعما بنظريات وقيم ومبادئ طازجة لم تغرق في بحر الروتين و مليئا بحماس

لم يبرده جليد الواقع والامر الواقع .ماجرى بعد ذلك كان مواجهة عنيفة بين المدرس والتلميذ حيث رفض اعطاءه الهاتف ،كما كلمه بلهجة متعجرفة استفزت المدرس الجديد ،وانتهت بطرد علي خصوصا بعدما هجم على المدرس حيث استشاط غضبا و شعر بإهانة كرامته وهو ما جعله يضرب بعرض الحائط الامتحان و المستقبل ، هرج كبير اثير في المدرسة انتهى بطرده منها و اقتياده الى مخفر الشرطة حيث جاء والده لاصطحابه بعدما ترجى و تملق رجال الشرطة و المدرس ليسحب شكواه و يكتفي بفصل علي من المدرسة فهذا أهون من سجنه .خبر نزل كالصاعقة على الأم الحالمة ونسف جبل أمنياتها و تحولت وصلة التضرع الى الله و التوسل الى وصلة دعاء وسباب ضد المدرس الشرير الذي دمر مستقبل ابنها .علي من جهته لم يكترث لما جرى و بقدر سخطه على المدرس بقدر ما سره ما حصل ، فقد وجد من يرمي عليه فشله الدراسي و يتحمل عنه سخط و خيبة أمل والديه ، صار المدرس كبش فداء مثالي ، فيما خرج علي للترويح عن نفسه صحبة رفاقه ،لم تجد نجية سوى الاب كمستمع لنوبة غضبها و هو مااعتاده فدأب على التظاهر بالاستماع دون اكتراث و بالاخص دون اعتراض كان يعرف بحكم العشرة طبع زوجته ، وأن النقاش بالنسبة لها هو الاستماع اليها دون اعتراض و تأييد كل ما تقوله ولو عن غير اقتناع ،صار يلزم الصمت لتفادي أي شجارات لا طائل منها ،كان ذلك بمثابة دواء ومسكن لها يريحها، وأي ملاحظة معارضة تستفزها و تفجر نوبة غضب يصعب امتصاصها .لذا كان يتجنب الخوض معها في أي موضوع ويهز رأسه دعما لما تقوله فهو يدرك ان رأيه المؤيد أو

المعارض لا يفرق وليس له أي قيمة عندها فاختار الامتناع عن الادلاء بأي تعليق. خصوصا أنه كان يائسا من مستقبل إبنه في التعليم مما جعل آماله أكثر واقعية و عقلانية فجاء وقع الخبر عليه أقل عنفا و قسوة ، لكل ذلك فضل التركيز في مشاهدة التلفاز الذي تترنح نظراته بينه وبين زوجته محاولا التملص و الانسحاب من مهمة المستمع الشكلي ، رغبة استفزت الأم التي انزعجت من ضجره وباستياء صرخت في وجهه:

-ألا تمل من مشاهدة التلفاز؟ هل الاخبار أهم من مستقبل ابنك ؟

أجاب الأب بلهجة مهدئة :-خبر خطير استرعى اهتمامي ، الشرطة ألقت القبض على مزور بطاقات انتخابية ، لاحول ولا قوة الا بالله .

تنهدت الأم بترح وأجابت: إنهم أنا س بلا ضمير، هم عار على بلادنا.

خيبة أمل وإحباط عمت أرجاء البيت لأيام ،كدخان ملوث يخنق كل من تنشقه ،لم يكن سهلا على الأم الحالمة أن تنهار أحلامها و تتبخر أمانيها ولو كانت واهية .

سرعان ما سرى مفعول الوقت و خفت وطأة الإحباط و الصدمة وصار التعليم ملفا مطويا حفظ في أرشيف الهموم العائلية.

ومع الوقت تجدد الأمل في قلب نجية و أدركت أن هناك سبلا أخرى لتحقق حلمها بأن ترى ابنها في المكان الذي تتمناه وإن لم يفلح في التعليم ،كثير من شباب العائلة و الحي وهبوا حياتهم للعلم و أهدروا صحتهم في السهر و الكد و حصلوا

على أعلى الشهادات و هاهم اليوم يكتوون بنار البطالة التي تحرق أيامهم وتذوب شبابهم سدا ،تقدم بهم العمر وهم لا يملكون حتى مصروف جيوبهم، العلم بلا مال لا قيمة له ولكن المال بدون علم كفيل بتحقيق المعجزات ، المال وحده يعطي المكانة و الاحترام و التقدير ، لقد كبر علي وصار رجلا يلزمه مكانة و منصب مشرف بين فتيان جيله ، مركز يجعله محط تقدير و اعجاب و حتى حسد من طرف مجتمعه ، الجيران والأحباب والأعداء ، مكانة تنعكس على نجية وتجعلها تتفاخر بابنها أمام الأخريات .هذا ما شكل هاجسا لدى الأم التي تفكر ليل نهار كيف ترتقي به فوق الجميع و بالتالي بنفسها ، فنجاحه هو نجاحها .

والده يملك محلا جيدا لبيع الحلويات وأولى بعلي أن يساعد والده ويشرف على إدارة المحل الذي سيملكه في النهاية ، فكرة لم يستصغها علي فهو ملول يكره الروتين والبقاء طوال اليوم في ذلك المتجر ، في إجراء الحسابات وأوراق و فواتير لا تنتهي ، حياة مملة خالية من التسلية والاستمتاع ، تعب لم يعتده ، على عكس والده الذي كافح وعانى الأمرين حتى حرم من عيش حياته وشبابه وطفولته حتى يرتاح في شيخوخته ، كان هذا سببا آخر ، لإفراطه في تدليل إبنه وإغداقه بالحب والرفاهية المطلقة حيث يعوض مافاته من خلاله .مع ظغط الأم اضطر علي للموافقة على مضض .لم تلبث نجية أن إبتاعت لابنها أغلى وأرقى البدل والملابس لتجمل صورته وتعزز دخوله عالم الاعمال وتضفي على شكله الهيبة والجدية الازمتين .

منذ اليوم الأول ، بدأ علي عمله كصاحب العمل ، مفعم بالكبرياء والفخر الضروريين لمنصبه فكان ينظر بجدية و ترفع ، تمتع بسلطة جديدة على عاملي المتجر ، سلطة لم يتأخر في استخدامها عن طريق اعطاء الاوامر ، استخدام نبرة متعالية ، عدم التباسط و التقرب من العاملين ، مرت بضعة أيام و هو يواظب على الذهاب للمتجر دون أي عمل يذكر ثم يعود للمنزل منهكا وشاكيا من ضغط الشغل فيقابل بأمه التي لا تذخر جهدا في سبيل تدليله وتعويضه عن شقاء العمل ، عناية لم يظفر بها والده طوال حياته .سرعان ما بدأت المناوشات و الاحتكاكات بين علي و عمال المخبزة ، اللذين استفزوا من تسلطه ومعاملته القاسية على عكس أبيه . ذات يوم اصطدم بأحد العمال وهو يحمل صينية من الحلوى مما لطخ ملابسه بالقشدة ، فانقض عليه علي و أبرحه ضربا ملقيا في و جهه وابلا من شتائم قاع المجتمع ، برغم أن العامل يكبره سنا لا بل هو في سن أبيه .حادثة جعلت جو العمل مشحونا ومعبئا بالتوتر والعدائية فقد صار علي مكروها من كل من يعمل في محل والده، موقف جعله يستوغل ويتمعن في ممارسة سلطته اتجاه العاملين فنظراته كلها استعلاء و نبرته تعكس تسلطا وغرورا حادين لم يعتدهما العاملون .

معاملة لم يفلح سعي الأب في تخفيفها رغم نصائحه وحثه لإبنه بأن يتسم بالتواضع والرحمة والتقرب من مستخدميه لكسبهم والاندماج معهم ليشكلوا فريقا واحدا .

ومالبث أن تحول الخلاف بين علي ووالده بعدما لاحظ الأخير أن إبنه استحل مال المتجر دون إذنه و كيف أن مداخيل المخبزة قد قلت ، أمر لم ينكره علي معللا ذلك بأن مصاريفه كثيرة و هو بحاجة للمال الذي هو حقه ، لتلبية حاجياته و أن المصروف المخصص له لا يكفيه حتى منتصف الشهر ، حجة وإن لم تقنع الاب فقد تقبلها بعد وقوف الأم في صف إبنها و تصديقها على كلامه مذكرة إياه أنه إبنه و ليس عاملا لديه .غلبته عاطفة الابوة فهو إبنه الوحيد سنده في الحياة و مخلد اسمه ووريث عرشه وعلي يعرف ذلك جيدا و يستغل مكانته الخاصة عند والديه ، متأكدا أن أي كلام أو توبيخ لن يفضي لأي فعل وأن إرادته ستتم مهما بلغت لهجة التأنيب حتى أضحى يستخف و يستهين به .

أما نجية فقد كانت منتشية وفخورة برؤية ابنها يلعب دور المدير ورب العمل ،رجل بكامل هيئته ، يبدد النقود على رغباته و يتفنن في التفاخر بنفسه كالطاووس المغتر ، مرت الأيام و ترك الاب المجال لابنه متغاضيا عن تجاوزاته ودلاله .حيث مر أسبوع لزم فيه الفراش بسبب وعكة صحية وعند عودته للعمل ، كانت بانتظاره مفاجئات غير سارة اتخذها رب العمل الجديد ، فقد فصل احد العمال القدامى في المخبزة عندما عارضه في قراراته و هو رفع اسعار منتجات المخبزة مما جعل الاقبال على المحل يقل بشكل واضح ، كما حصلت مع احد موردي الدقيق الذي يتعامل مع والده منذ زمن مشكلة لتلكئه في دفع مستحقات الاخير مما أثار استيائه و عند

مواجهته لعلي وإلحاحه على تسلم ماله ، تطور النقاش إلى مشادة أغضبت المورد الذي قرر فسخ اتفاقه مع مخبزة الاب و عدم مدها بالدقيق ، موقف صعب استفز علي ووضعه في امتحان لمدى قدرته على ادارة المحل ، تحد عليه اجتيازه بنجاح حتى لا يشمت فيه أحد ولا تهتز صورته مما دعاه للاتفاق مع مورد آخر بثمن أقل ، امر اعترض عليه احد العاملين لخبرته الطويلة وعلمه أن هدا التاجر سيئ السمعة وليس أهل ثقة عند والده و بضاعته متدنية الجودة ، مما جعل علي يثور غضبا ضد العامل رافضا تجرؤه على مناقشة قراراته، متجاوزا حدوده ، فما كان منه إلا أن طرده ورفع أسعار المنتجات في محاولة منه لرفع المداخيل و اثبات تفوقه على أبيه وكذلك تعويض ما بدده من أموال المحل على رغباته و أصحابه .صدم الأب لكل ما سمعه و نشب شجار حاد بينهما فهب علي ضده حتى تحول الامر لمشهد عنيف على مجرئ ومسمع عمال المحل .كان ذلك المشهد هو الختام لرحلة علي كرب عمل في محل والده فقد خرج حانقا و ناقما .

وبعدما مرت العاصفة جاء دور الأم لتهدئة الوضع ورءء الصدع و تبريد التوتر بين الاب والابن.لم تجد الأم صعوبة في تهدئة زوجها ولكن المشكلة ، كانت في علي الذي أقسم ألا يعود للمحل ولو توسل إليه أبوه ممتعضا من معاملته السيئة له أمام العاملين وظل لعدة أيام مغتاظا ، متجهما في وجه أبيه منعزلا في غرفته .رغم محاولات أمه ترضيته و حمله على نسيان ما حصل وإعطاء الامر فرصة اخرى دون جدوى فقد

استحال عليه معاودة العمل في المخبزة و التعامل مع عمالها بعدما اهان والده كرامته وانتقده بقوة وعنف أمامهم ، إحساس علي بالإساءة كان عميقا وموجعا فهو لم يعتد ولم يسبق له ان عومل بطريقة كهذه مما جعله لا يستسيغ و لا يهضم تعنيف والده له ، واعتبر دلك+ إساءة و تعد على عزة نفسه وهو امر لم يتقبله ولكن رأى في الامر كذلك فرصة للتخلص من ورطة المخبزة بعدما أيقن أنها ليست مسلية وممتعة كما كان يظن ومل الرتابة والمسؤولية فرأى في شجاره مع والده فرصة للانسحاب من تلك الورطة بعذر يحفظ له كرامته و كبريائه ولا يظهره بشكل الفاشل و العاجز عن تحمل المسؤولية .جربت الأم المحايلة لتجرب إقناعه بالعودة للمكان التي حلمت ان تراه فيه يتحول بين ليلة و ضحاها لرجل أعمال ذو قيمة وهيبة تختال به أمام الحبيب و الغريب ولكن دون طائل فقد حسم أمره بعدم العودة لذلك المكان فهو يريد شيئا ممتعا خصوصا أنه ضجر ومل من روتين العمل وحن الى حياة الترف والصعلكة مع أصحابه دون قيد أو مانع ،حتى أن والده وتحت وطأة ضغط زوجته وتوسلاتها و أسلوبها في الاقناع الذي يعتمد على الزن الدائم والمحاصرة لم يملك بدا من الرضوخ والتسليم بأنه المخطئ ويتنازل امام ابنه طالبا منه العفو وترجيه للعودة الى المحل دون جدوى .مع مرور الأيام يئس الابوان من إبنهما و خضعا كالعادة لإرادته ، لم يمض وقت طويل حتى خرج علي بفكرة جديدة نتيجة نضج ونصائح من أصدقائه وهي أن يعمل و لكن بشروطه و ظروفه لم يرد عملا حكوميا فالروتين والنهوض مبكرا و الجلوس في مكتب طوال النهار أمر مضن كما انه غير متاح ولا يلبي طموحه .انه يريد عملا

مريحا ومسليا ولكن في نفس الوقت ذات وجاهة ومشرف له اجتماعيا حيث يكون الموظف و المدير ، حيت لا يتلقى اوامرا من أحد ، مشروع خاص يكون المسئول عنه.وحيث أن والديه مستعدان لتلبية طلباته وأهواءه فالتمويل لن يكون مشكلة أمامه، بعدما شجعه أصحابه ، قرر علي أن ينشئ مقهى الكتروني و كالعادة بدأ بمفاتحة أمه لعلمه بمدى تأثيره عليها و مدى ثأتيرها على أبيه ، كذلك هي تدعمه دائما و بشكل مطلق و أعمى فعليها يقع عاتق اقناع الاب بتمويل حلم ابنه ، و توفير المال الكافي له وهذا ما تم بسهولة و لو على مضض ، لم يكن أمام الاب سوى الرضوخ لطلب ابنه أو تركه للمجون و النزق فريسة سهلة لأصحاب السوء و لو كلفه ذلك مبلغا طائلا من المال سيغامر به فقد أقنع نفسه ان ذلك جزء من دوره كأب ان يساند إبنه و يحقق له مبتغاه و هذا ماتم في غضون بضعة أشهر حيث ثم استئجار محل و شراء معدات و اتخاذ الاجراءات فوضع الاب ما جمعه طوال حياته في ذلك المشروع و قام باقتراض مبلغ من المال لاستكمال ما يلزم، أما علي فقد اقتصر دوره على الاشراف و اختيار أجود وأفخم المعدات ، أمر قام به بحماس كبير و هو على أعتاب حياته الجديدة ، الحياة التي لطالما تمناها ، سهلة ومرفهة ، حياة يحركها جهاز تحكم يحقق له في لمح البصر كلما يريد دون عناء .ما أجمل أن تتحقق الاحلام بشكل سحري دون عناء و ينال المراد دون أي مشقة ، دون انتظار لسنين في التعب و الشقاء ، بلا تضحيات أو ثمن ، شعر أنه يحتال على الحياة و ينتصر عليها يأخد منها ما يريد دون مقابل ، يختصر مشوارا طويلا من المعاناة و الفشل و النجاح ، يحقق في أيام ما

حققه غيره في سنوات،كثيرون كدوا واستنزفوا صحتهم و شبابهم لتحقيق مبتغاهم حتى شاخوا وكهلوا فتعذر عليهم الاستمتاع بما حصدوه أما هو فقد وفر أياما وسنينا من حياته يغوص فيها في ملذات الحياة و يقفز على فترة الشقاء و الكد أو ما يسمى بالكفاح فظفر بثمار الحياة على طبق من ذهب ،فشعر أنه أذكى و أكثر حظا من أبناء جيله ، .هكذا في لمح البصر وجد نفسه جالسا على مكتب فخم ، و يدير مقهى للانترنت على احدث طراز ،مجهز بأحدث المعدات ، يجلس مشبعا بالزهو و الكبرياء و سعادة لم تقتصر عليه بل امتدت الى اصحابه الذين رأوا فيه غنيمة يصعب و يستحيل تفويتها ، اما هو فاستمتع برؤية نجاحه في عيونهم .والده من جهته اشترط عليه الزواج آملا أن يكون لهذه الخطوة تأثير إيجابي على إبنه و يجد زوجة تصلح فيه ما عجز هو وزوجته عن فعله ، تعدل سلوكه وإن فشلت تتحمل وزر اخطائه ، فكرة استحسنها علي فقد ضجر من العزوبية و فتيات الليل وغاص في عالم العلاقات حتى ضاق به وصار بالنسبة له متعة باهتة فقدت بريقها ووهجها فباتت مبعث ملل وروتين ، لا سيما انه صار يخشى عواقبها، ليس الاخلاقية و لكن الصحية .

خصوصا أن زواجه لن يكون عقبة في طريقه إذا شعر بالحنين لمغامراته الجنسية ، فالزواج ليس عائقا ولا نهاية لحياة العزوبية التي يبقى طريق العودة اليها مفتوحا و متاحا في أي وقت .بدأت رحلة البحث عن عروس مناسبة وهو أمر عسير ليس لقلة الفتيات و لكن لصعوبة مطابقتهن لشروط علي و بالأخص لشروط أمه.بمجرد ما شاع

خبر رغبته في الزواج حتى صار بيته مقصدا للحبيب و الغريب وصار افراد العائلة والجيران يترددون على نجية و يطلبن ودها ويتوددون إليها مع بناتهم فلم تحتج الأم للبحث و التنقيب عن فتاة ،أمر أصرت على التدخل فيه ، معتبرة إياه حقا أصيلا لها ان تختار زوجة ابنها ، لطالما انتظرته مند انجابها له، ان تشعر بالزهو و الانتصار وهي ترى كل النساء اللتي تعرفهن يستجدين عطفها وودها وكأنها سلطانة متوجة على عرشها و تقدم اليها عرابين وقرابين الود والكل يبغي رضاها ، هذه المتعة لوحدها تمحي كل ما عانته في حياتها و تضمد جروحا تجدرت فيها ،مما دفعها للرغبة في تمديد فترة البحث و إطالة المتعة التي استحلتها لأطول مدة ممكنة فصارت تبرر رفضها لأي فتاة بدعوى مختلفة ، هذه ليست ماهرة في الطبخ و الاخرى ليست بشوشة و اخرى جريئة و سليطة اللسان و أخرى نحيفة وأخرى سمينة وأخرى داكنة البشرة وأخرى لديها حول في عينيها الخ الخ ، الاسباب لا تنتهي وإيجاد عيب في كل واحدة ليس بالامر العسير ، في تلك اللحظة تذكرت حماتها و ما سقتها من مر. استفاق سخط ومرارة خزنتهما داخلها لسنين و الان جاء الوقت لتفريغهما وكأنه ثأر باءت جاء الوقت لأخذه و ثمن تدين به الحياة حان وقت تسديده.امر لم يزعج لا الاب و لا ابنه فالأب ادرك عن خبرة وتجربة ان موافقة الأم على العروس أمر حتمي ليس إيمانا منه بحقها أو خبرتها و لكن تفاديا لحرب ضروس ذاق مرارتها بين أمه وزوجته ولم يرد لابنه ان يعاني منها وان تطاله شظاياها ،حرب استنزاف أعصاب لا تنتهي الا بموت احداهما و تحول الحياة الى جحيم يحرق الاعصاب و يستنزف الصبر ، لا يسلم منها احد والزوج اكثر

من يكتوي بنارها .أما علي فبدوره كان يثق في أمه و لم يكن على عجلة مدركا ان أمه ستختار له الافضل و الاكثر عفة و جدارة لحمل اسمه والانتساب اليه ، وليتها تكون كأمه مطيعة و مضحية تقبله بكل عيوبه التي لا تراها أصلا، فانوسه السحري الذي يحقق له كل ما يريد قبل ان يطلبه .وخصوصا ان عمله الجديد يأخذ كل وقته وتفكيره فانهمك في منصبه الجديد كصاحب مشروع و رجل اعمال ، فصار يرتدي افخم واغلى الملابس ويبتاع اغلى هاتف محمول و يغيره كل شهرين و اغلى العطور ،كل ما يلزم لتلميع صورة اجتماعية مثالية ، لم يكن علي الوحيد الذي يستفيد من مشروعه الجديد ولكن أصحابه أيضا كان لهم نصيب وحصة من الغنيمة فقد وجدوا ضالتهم في مقهاه معتبرين أنفسهم شركاء له ، فهم من اشاروا عليه بفكرة المشروع ، شجعوه على المضي قدما ، هذا علاوة على علاقتهم الوطيدة به، فهم رفقاء عمر منذ الصغر ، اختبروا الحياة سويا منذ ان جمعهم نفور الدراسة وحب الشقاوة والشغب حتى احترفوا الكسل و اللامبالاة وامتهنوا الانحراف في كل صوره ، معتبرينه طريقهم للنضج والرجولة والعلم الذي ينفع تعلمه حتى يتخرجوا للحياة ويجتازوا امتحانها مسلحين بالمعرفة الضرورية والثقافة الازمة ، اول مرة دخنوا فيها سيجارة كانت لحظة بلوغ بالنسبة لهم ،أول مرة غشوا في الامتحان دون ان يكشفهم المدرس احتفلوا بعدها بشجاعتهم و ذكائهم ،أول مرة أقاموا فيها علاقة مع فتيات كان يوم تخرجهم من مدرسة الرجولة ، تجارب و ذكريات متراكمة تشاركوا فيها ومن هذا المنطلق نشأ بينهم رباط قوي وعهد لا يفك ، فاعتبروا المقهى ملكا لهم وصاروا يرتادونه بشكل دائم مصطحبين معهم أصحابهم

ومعارفهم لتمضية الوقت والتباهي وكل ذلك بشكل مجاني وسرعان ماتحول المحل لمرتع للمتسكعين والمدمنين و صارت تفوح منه رائحة السيجار والمخدرات وتتعالى منه الاصوات والضحكات حتى بات يعج بالناس ومع ذلك لم يكن يحقق المداخيل المرجوة منه والتي تعهد علي بتسديد قرض والده منها ، أمر استعصى عليه ودلك بسبب اسرافه وتبديده للمال على شهواته ، فصار يستحلي ارتياد أفخم المطاعم والسهر في أغلى الملاهي خصوصا ان خروجاته تكون جماعية و تشمل شلة من اصحابه التي لا يستغني عنهم و يحب رفقتهم ولاسيما التباهي أمامهم بماله ولهذا السبب سمح لهم بالتردد على مقهاه كلما ارادو دون دفع أي مال. كل هذا جعل المداخيل تتضاءل وتتلاشى وعجز عن سداد القرض مما استدعى والده أن يدفع المستحقات عنه و عند مواجهته لابنه ،كانت الأم تتدخل لتهدئة الوضع والدفاع عنه خصوصا حين كان يصاب بنوبة عصبية تجعله يفقد السيطرة على نفسه ويبدأ بالصراخ وتحطيم كل ما يجده امامه ، وجسده ينتفض ويصعد الدم لرأسه وعيناه تنشران شرا وغضبا لينتهي به الامر باكيا بعدما يعاتب والديه بعدم مساندته و تقدير وضعه و بدل مؤازرته وهو يبدأ حياته العملية يتصيدان له الاخطاء ، عندئذ يهرع والداه الى تهدئته ومواساته بكل الطرق ، المداعبة وقراءة أيات لطمأنته، فينتهي الأمر به مستلقيا على الفراش وأمه وأبوه الى جانبه ينتظران هدوءه و ينصحانه بالخروج مع أصحابه للترويح عن نفسه ،كان الابوان يعلمان بسبب تبذيره المال ، فبرغم عمله لم يكن يساهم بقرش في مصروف البيت ، أمه بالذات كانت تعلم أن أصحابه كانوا يعيشون على حسابه

إضافة لعلاقاته النسائية التي تفرغ ما بجيبه ، فهي إمرأة ذات خبرة ، تعرف ما قد تفعله امرأة حين تجد رجلا صاحب مال ،تتهافت عليه الفتيات كما يتهافت النحل على زهرة مليئة بالرحيق ، خاصة إذا كان عازبا ،كثيرا ما ردت الأم على هاتف ابنها اثناء انشغاله أو غيابه و كل مرة تفاجئ بصوت فتاة تطلب التحدث اليه، و كل مرة كانت تلاقى بنوبة عتاب وتوبيخ من طرف علي الذي يهب ضدها لأنها تخترق خصوصيته ويعايرها بالجهل والتخلف ورغم استياء صامت و مرارة مكتومة سرعان ما تعاود الكرة بدافع فضول تعجز عن كبحه، ثم تجلس مستكينة و مسالمة تتحمل وصلة تعنيف تتقبلها بعجز مهزوم أمام صوته المرعب خصوصا حين يغضب ينبعث منه صوت مخيف يثير الذعر كأنه زئير أسد هائج يربك سامعه هكذا كانت الأم تقف أمام ابنها مرتعبة و مرتعدة لا تجرؤ حتى على النظر في عينيه فلم يكن أمامها سوى صب غضبها على الفتاة المتصلة ووصفها بشتائم و اوصاف تستنكر تصرفها المشين وتستغرب من بنات هذا الجيل و وقاحتهن و تترحم على أيامها و كيف كانت الفتيات مثالا للحشمة و الأدب أما هذا الجيل فلا يستحي، هذا السخط كان يعوض عجزها عن لوم ابنها وإحساسها بالدونية أمامه بالذات عندما تتلقى غضبه أمام الضيوف سواء أخواته أو غيرهن، وضع يضاعف حرجها وإحساسها بالضيق أما علي فلم يكن يشكل حضور ضيوف او عدمه فارقا عنده ، مشهد متكرر ولكن يترك لدى الأم شعورا عميقا بالمرارة التي تكتمها وتسرق النوم من عينيها فلا تجد سوى التنهيدات لتنفس عن وجعها في انتظار فرصة لتفريغه في وجه ضحية مناسبة.رغم معرفتها بما يحاول إخفاءه و رغم

يقينها بأن كل أعذاره ومبرراته مجرد أكاذيب فجة ، لم تجرؤ أبدا على مصارحته و مواجهته بالحقيقة ، ليس فقط خوفا منه ولكن في أعماقها كانت سعيدة و فخورة بأسلوب حياته ، ولو بذر المال ، المهم أنه يتمتع بحياته و يتفاخر بماله أمام أصحابه ، وحتى علاقاته النسائية دليل حب النساء له ولهتهن وراءه فهو رجل وسيم في ريعان الشباب ، وهذا أمر مثير للإعجاب والفخر . لكل هذا غضت الطرف و أقنعت زوجها على ضرورة مسايرة علي و تحمل لامبالاته وتبديده للنقود وتقاعسه عن سداد الدين . فقد ادركا ان العناد معه قد يأتي بنتائج عكسية ويؤدي الى عزوفه عن العمل كما فعل في محل والده ويعود للكسل والتسكع ، مصير لم يريداه ففضلا الصبر و التسلح بطول البال وانتظار ان يهديه الله و يصلح طبعه فضياع المال افضل من ضياع الابن وعلى الاقل هو يتمتع بعمل يعطيه وجاهة اجتماعية ولو انه يسبب خسائر مادية ولا يحقق ما كان مرجوا منه ولكنه يحقق مكسبا معنويا هو الصورة الاجتماعية البراقة وهدا افضل من لاشيء كما ان علي من حقه ان يعيش شبابه طولا وعرضا من حقه العيش ضاربا بعرض الحائط معاني المسؤولية ، كل هذا سيأتي لاحقا أما الآن فلينعم بحريته حتى الثمالة ثم مع الوقت سيعلمه الزمن ويجعله ينضج و يثقله بالمسؤولية و الضغوط .هكذا دأب الوالدان على التحلي بالصبر على أمل أن يكون الآتي أفضل ولكن استمر الوضع على حاله ،ساءت سمعة المقهى وتضاءلت مداخيله.حتى جاء يوم صار مالم يكن متوقعا .كانت الأم في المنزل كعادتها تشاهد مسلسلها المفضل أو واحد ضمن لائحة مسلسلاتها المفضلة ،غارقةفي أحداثه بتفاصيلها و هائمة في شخصيات تعرفها

عودة للأعلى

أكثر مما تعرف شخصيات عائلتها وهي في قمة الاندماج والتأثر رن الهاتف لتجد ابنها وصوته يرتجف، مما جعلها تستشعر ان خطبا جللا حدث بحاسة الأم والخوف من المجهول الذي يجعلها تتوقع اسوء السيناريوهات عند اقل اشارة .كل ما فهمته من ابنها أنه في مخفر الشرطة، طلب منها اخبار والده والحضور اليه بسرعة دون اعطاء أي تفاصيل أو ايضاحات فجعلها فريسة لأ شرس وأخبث الاحتمالات ، هي تعرف طبيعة ابنها الانفعالي والمندفع وسريع الاستفزاز ، طبع يورطه في المشاكل .صوته المذعور أرعبها كما أن كلمة مخفر الشرطة لوحدها تثيرالذعربدل الآمان وتجعل أي انسان ولو دون سبب يرتعد و يخاف وكأنه ارتكب جريمة نكراء .خوف غريب استوطن الناس اتجاه الشرطة صارت كبعبع خفي يرعب من يقترب منه .بسرعة البرق إرتدت جلبابا وهمت بالخروج ثم أدركت أنها لم تتصل بزوجها، المفاجئة أفقدتها القدرة عل التفكير كلما استطاعت فعله هو تلاوة الأدعية التي حفظتها ثم اتصلت بزوجها و سرعان ما مر عليها ثم ذهبا للمخفر سويا ليجدا ابنهما وهو مصاب في رأسه ،بلهفة مجنونة هرعت الأم لتحضن ابنها والخوف يتملكها وهي تطرح الف سؤال ، دقائق هلع و صدمة سادت ليتبعها الهدوء واستعاد الوالدان قدرتهما على الاستيعاب و انكشح الذهول ليترك المجال للعقل لفهم ما حصل.

.في ذلك اليوم ، ذهب علي كعادته للمقهى ليستقبل زبائنه ، أغلبهم كانوا ممن يأتون بحثا عن مكان يحلقون فيه بعيدا عن عالمهم ،الى عالم بابه ذلك الجهاز

الصغير الذي يحقق المستحيل ،بكبسة زر دون حواجز أو تأشيرة ، حيث يطلق كل شخص العنان لأغرب وأعمق الرغبات والنوازع دون خوف أو حرج ، يأخذون استراحة من الادعاء و التمثيل ثم يعودوا لمتابعة دورهم على مسرح الحياة فتحول المقهى لمطار ينطلق منه كل شخص الى وجهته من بين هؤلاء ثلاثة صبية بالكاد تجاوزوا العاشرة أدمنوا على ارتياد المقهى بعدما دلهم عليه أحد اصحابهم فوجدوا فيه متعة جديدة بعدما ملوا من لعبة كرة القدم وصاروا يبحثون عن مغامرة أخرى تملأهم حماسا وتدخلهم عالم الرجولة البراق الذي يستهويهم فصاروا مولعين بألعاب السرعة والعنف لما تثيره فيهم من انفعالات وترفع درجة الادرينالين في دمهم حتى أدمنوا عليها وصاروا يهربون من مدارسهم للاستمتاع بها ومع الوقت برد الحماس وضجرت النفس و تشوقت لنزوة جديدة اكثر اثارة وحماس ،هذا الجهاز كالفانوس السحري تخرج منه العجائب، يحقق المستحيل يبهر العقل و يتجاوز حدوده ،يدفع المرء لتخطي واقع ممل و باهت لا يلبي رغباته و يثير رعشات يختبرون بها معنى الحياة بكل أبعادها ، فعثروا هناك على مرشد فتح لهم طريقا جديدا وزودهم ببعض من مفاتيح عالم الرجولة والملذات التي تجعل العقل يلف ويدور ، لعبة فاقت توقعاتهم و حدود عالمهم الضيقة التي أرادوا كسرها وجعلتهم يدوقون متعة من مستوى آخر فاق خيالهم الطفولي ، بدأ كل شيء حين لمح أحد الصبيان رجلا على الحاسوب المجاور وهو في حالة من الاثارة فعيناه تلمعان بشدة ووجهه شديد الاحمرار وتعابيره مثيرة للريبة مما استفز فضول الصبي الذي استرق النظر ليرى ما يهيج هذا الرجل و يضعه في تلك الحالة

وإذا به يصعق لما لمحه حتى صعد الدم الى رأسه وصار يرتجف من الصدمة وعدم الفهم رجل وامرأة عاريان في وضع لم يفهمه ولم يستوعبه ولكنه مشهد مزلزل لطفل بعمره جعل حواسه تشتعل وهذا ما كان يبحث عنه هو و رفاقه ، مايشعل الحواس ويلهب الوجدان ، ما يستفز الشعور ويزلزل العقل ما يقتل وحش الملل وسرطان الرتابة الذي يجثم على الصدر داخل اقسام المدرسة .سرعان مازال الاستغراب وتبددت المفاجئة وتبخر الحرج لم يبقى سوى الفضول والحماس لاختبار ذلك الاحساس مرة بعد مرة .فضوله و شغفه بتكرار التجربة لم يكن فقط بدافع الملل والبحث عن الغير مألوف ، لابل كانت رغبة دفينة وسؤال قابع في عقله دون جواب يتكرر كل مرة يشاهد امرأة ورجلا يقتربان من بعضهما بشكل لا يفهمه ويثير فضوله و فجأة تغير المحطة الفضائية ، ويرتسم على الوجوه تعبير يوحي بأمر جلل يتبع ذلك التقارب ، أمر تحرق الولد لاكتشافه ، ولكن تحرج من أن يستفسر . لم يستغرقه وقت طويل أو مجهود لإقناع رفيقيه بالانصياع لدلك الهوس الذي يعطيهم احساسا بالرجولة والنضج المبكرين كما يتحمس انسان للقفز من طائرة أو يتسلق جبلا رغم الخطر و رغم عبثية التجربة ولكن المبتغى هو إحساس جديد مختلف لم يعشه من قبل ، الاحاسيس تكون مبعث ملل وضجر ، كالبيوت ،كالتفاصيل اليومية التي تتحول الى روتين قاتل، تكون المشاعر المكررة والثابتة قفصا يحبسنا فنسعى لكسره.

نسعى لشيء يدهشنا و يفرز فينا شغفا جديدا نتعطش اليه ونعرض حياتنا للخطر من اجل الضفر به و قد نخالف ضمائرنا و مبادئنا لنصل الى نشوة تسعد روحنا ، مع الوقت صاروا يشعرون بالزهو و الغرور يملأهم فخرا و تفوقا على منهم في سنهم لأنهم سبقوهم للعالم الاخر، عالم القوة و النضج الذي قفزوا اليه فوق سنين تفصلهم عنه ، وصارت لعب الاطفال وحتى برامج الاطفال والدراسة ،كل دلك صار متجاوزا و باهتا فاقدا لأي بريق حتى اضحى بدائيا ومثيرا للسخرية لقد ودعوا عالم الطفولة صاروا رجالا في جسد اطفال.في ذلك اليوم كانوا مغيبين وكأنهم أمام منوم مغناطيسي سلبهم إدراكهم ، وهم هائمين وقد سال لعابهم ،فجأة ، صعق أحد الصبية وهو يرى وجه والده يطل عليه ويده تنزل على كتفه فاستيقظ من غيبوبة على كابوس جعله يصاب بالرعب فقد علم والده بتغيبه عن الدراسة وقام بتتبعه حتى عرف مكانه حالة من الهستيريا والهياج أصابت الأب بعدما رآه فانقض على إبنه بالضرب و السب مدفوعا بغضب فجرته صدمته مما رآه ، وعندما حاول علي التدخل وإيقاف الرجل عما يفعله ، هاج الأب ضده متهما إياه بإدارة وكر للفساد ،كلمة وإن أشعلت غضبه واستفزته ولكنه أدرك صحتها داخله ، فقد قرر منذ البداية التساهل و عدم وضع أي موانع أو ضوابط لمن يرتاد مقهاه .فكل شيء مباح مقابل المال خصوصا أنه صار بحاجة إلى رفع مداخيل المقهى بأي ثمن ، أمر لم يستصعبه فهو ليس ممن يقدسون القيم والمبادئ ، بالذات حين تقف حائلا أمام هدف كالمال ، فلا يجب أن يتردد المرء في سحقها دون شعور بالذنب أو التفكير مرتين، فالتضحية بالمصلحة مقابل مبدأ مهما كان نبيلا

عودة للأعلى

هو تصرف جنوني و هبل مثير للشفقة .فلم يكن كغيره من أصحاب المقاهي الأخرى يمنع التدخين أو الاصوات العالية أوحتى تعاطي المخدرات ، مما جعله مقصدا مفتوحا على مصراعيه للمتسكعين .كان مقتنعا أن كل شخص مسؤول عن نفسه وهو ليس وصيا على أحد و لا يجبر أحدا على شيء ، حتى الاطفال كان يرى انهم مسئولون من اولياء امورهم و ماداموا دخلوا الى مقهاه فمهما فعلوا سيكون هذا ذنب أولياءهم ،هو ليس مربيا أو رقيبا عليهم ،قناعته هذه جعلته يواجه الاب بجسارة وجرأة خالية من أي شعور بالذنب مما أدى الى تطور الأمر وتحول التلاسن الى اشتباك بالأيادي أفضى إلى عراك أدى الى إصابة الأب بعدما استيقظ داخل علي ذلك المخلوق المجرد من العقل، فبطحه بآلة الطباعة على رأسه جعلته يسقط أرضا والدم ينزف منه حينها فقط استعاد علي وعيه و استفاق من نوبة الغضب التي جردته من أي بصيرة ، فجأة تحول الثور الهائج الى حمل مرتعد ، همدت العاصفة العاتية التي تضرب داخله عند أقل استفزاز دون كابح ،وكأنها إعصار مدمر لا يسمع ولا يفهم ،فجأة يدرك الدمار الذي ألحقه وما ورط نفسه به ،تحول وجهه من النقيض الى النقيض من صورة الثور الهائج و الملامح التي تنضح شرارة إلى وجه ملأه الرعب والخوف ،كتكوت يرتجف ،عاد لوعيه هاله ما ورط نفسه فيه خصوصا وهو يرى الشرطة تقوده للمخفر ويداه مكبلة ، خمدت فورته وهمد المارد الذي يسكنه ليظهر الكائن الضعيف الهش ، جاء والداه ليجداه فريسة الخوف الذي انقض عليه ككابوس أراه أبشع الصور فراح خياله ينسج أفظع السيناريوهات.

عودة للأعلى

- سأدخل السجن هل انتهت حياتي سأحرم من حريتي ، من حياة الرغد والعربدة لأصبح مسجونا ، مجرم صاحب سوابق ،كيف سينظر إلي الناس كل من أعرفهم ،أقاربي وأعدائي حتى أعز أصحابي ،كلهم سيشمتون في بعدما كانوا يغارون مني، ياله من مصير سينزل بي لأسفل سافلين بعدما كنت في القمة .

بمجرد ان رأى والديه انفجرت دموعه وانهار تماسكه خصوصا عندما هرعت إليه أمه بلهفتها وفيضان حنانها لترى وجهه المروع الذي يلبسه عند أي مشكلة يقع فيها ، نفس الوجه منذ ان كان طفلا صغيرا يتخذه عندما يخطئ ويهرع لأمه مرعوبا وفزعا ، نفس ذلك التعبير لم يتغير عبر السنين ، تغيرت ملامحه و احتدت تقاطيعه واخشوشن صوته حتى صار مصدر رعب بمجرد نظرة منه ، ولكن بقي دلك التعبير مستعصيا على الزمن . حضنت الأم ابنها المروع والدموع تنهمر منها محاولة تهدئته و تخفيف هلعه فيما راح الأب يستفسر من الضابط عن سر ما حصل وبحزم الاب وتمالكه نفسه سمع ما يكفي ليعتلي الامتعاض وجهه وقبل أن ينطق بكلمة هرعت الأم لإسكاته بنظرة حادة تبعها درس لاذع في تقدير المواقف كان كافيا لردعه ، محاضرة مالبثت ان تجددت عندما خرج الوالدان من القسم حين حاول الأب الإفصاح عما بصدره من فاجعة لم تخطر له على بال ، تذمر وجدت الأم فيه فرصة لصب عصبيتها عليه ، كانت تعرف أن الأب سيحملها مسؤولية ما حصل وأن دلالها له أفسده فما كان منها إلا أن استبقت وانقضت عليه بموشح لوم وانتقاد لعدم تقديره ظروف ابنه و

بدل مواساته كان يريد أن يجهز عليه أمام الناس غير مراع لحالته أو ما سيقوله المحيطون به ، حملة مداهمة و متواصلة دون توقف أو استراحة بإيقاع متسارع وشحنة عواطف وانفعالات تحاصر و لا تترك مجالا للرد أو الاستدراك ، عملا بمبدأ الهجوم أفضل وسيلة للدفاع ،مبدأ لطالما اتبعته نجية في الاوقات الحرجة ولطالما كان سلاحا ناجعا ، مهارة اكتسبتها من دروس الحياة ، سرعان ماانتقلت من وصلة اللوم والتقريع الى وصلة شكوى و مرارة على حال ابنها وكيف أنه سيقضي ليلته مع المجرمين و المتشردين وهو يقرف من كل ذلك ومعتاد على النوم في الرفاهية والنظافة ، من وقت لآخر كانت توصي زوجها بأن ينتبه لكلامه وألا يقول شيئا لأحد ، قاطعها الأب طالبا أن تتوقف عن معاملته كطفل وقبل أن يكمل جملته ، ردت عليه باستهزاء أنه لايصون لسانه و لا يفكر قبل أن يتكلم وذكرته بكم مرة أفشى فيها أسرار العائلة ،حقيقة جعلته يستكين ويلزم الصمت فيما استمرت الأم في لومه :

–لم تقدر ان تقنع الضابط الافراج عنه

–لقد حاولت لكنه رفض .

–لأنك لم تدفع له .

–أدفع رشوة ! استغفر الله بعدما زرت بيت الله .

–لا الأفضل أن تترك ابنك ينام مع المجرمين .

–هو من سبب ذلك لنفسه، لقد أوشك على قتل الرجل.

-كان يدافع عن نفسه وأنت تعرفه لا يتنازل عن حقه أبدا .

-المهم الان أن نتصل بمحام لإخراجه من هذه الورطة ، الصباح رياح .

-سأذهب لأحضر بعض الطعام الذي يحبه علي تم تحضره له.

-لا أضن أنه في مزاج ليأكل الان ، الوقت تأخر

-طبعا انت لا يهمك ان يبيت جائعا ، يكفيه انه محبوس في ذلك المكان على الأقل سيجد ما بقوت به نفسه عدا عن ذلك ، سيخفف عنه مرارة الزنزانة ، لقد دفعت نقودا لأحد الحراس قال لي أنه سيدخل له الطعام .

-كما تريدين.

لطالما كانت هذه الجملة خاتمة كل حوار يدور بين الزوجين المسنين ، ليس تعبيرا عن اقتناع ولكن قلة حيلة أمام مدفع الأم الذي يستنزف طاقته في نقاش عقيم لا ينتهي حتى يجد نفسه في متاهة لا يخرج منها ، من موضوع لموضوع وكأنها معركة أفواه والغلبة ليس للمنطق السليم والحجة الاقوى ولكن لصاحب الحنجرة الأقوى والأكثر قدرة على الصمود وصاحب الجهاز العصبي الأمتن والأقدر على إرسال الاتهامات بسرعة تمنع الاخر من الرد والتفكير فيستسلم من التعب ، مهارة كانت الزوجة تتفوق فيها بامتياز ،مبدأ الكثرة تغلب الشجاعة، فنجية كانت تملك جهاز هجوم أوتوماتيكي يشتغل تلقائيا عند الحاجة .بعد يومين تم إطلاق سراح مؤقت لعلي بكفالة رسمية و أخرى غير رسمية ، فاستقبل بالزغاريد والأحضان كما يستقبل الجندي

المحارب بعد عودته من حرب ضروس. مرت لحظة الاحتفاء وجاء وقت التفكير والبحث عن حل للأزمة التي عصفت بالعائلة وهددت مستقبل أهم شخص فيها.

اجتمعت العائلة كلها واستنفرت لإيجاد حل ينقذ مصير علي ، أوصت الأم الجميع بكتمان الأمر برغم يقينها باستحالة ذلك وأن الأمر سيفضح بكل الأحوال ، التحذير الثاني هو عدم لوم أو تعكير صفو علي فهو متوتر بما فيه الكفاية ولا تنقصه كلمة لوم أو حتى نظرة عتاب فهو مفرط الحساسية ، ومرهف الشعور وأي مخالفة لهذا التحذير ستواجه من طرف الام نفسها والكل يعرف ردة فعلها . اجتمع الوالدان مع المحامي لدراسة الوضع و الخيارات المتاحة ، أما علي فقد خرج بتشجيع من أمه للترويح عن نفسه بعد ليلة سوداء قضاها في السجن .لم يدم النقاش طويلا فقد أوضح المحامي للأبوين أن الحل الوحيد للمشكلة هو أن يتنازل الضحية عن حقه ، و بغير هذا الحل لن ينجو علي من السجن ، لذا اتفق الجميع على استعطاف الرجل المصاب و استجدائه لسحب الدعوة وأن علي هو الذي سيقوم بالمهمة ، اقتراح أثار ارتياب الام وقلقها فهي تعرف طبع ابنها و عجرفته، ذهابه إلى الرجل قد يعقد الامر و يسبب عراكا آخر ، هذا إذا وافق أصلا على المبدأ .و لكن الامر خطير ، حريته ومستقبله على المحك ، عليه أن يتنازل و يتصرف بعقلانية ، فمصيره بيد الرجل المصاب ، لم يلبث أن تحقق ما قالته الأم و رفض الابن ما اتفقوا عليه رفضا قاطعا ، مبررا ذلك بتفضيله دخول السجن على أن يذل نفسه لأحد، أعرب عن رفضه بنبرة حاسمة

وقاطعة ، جعلت أي إلحاح أو محاولة إقناع عديمة الجدوى ، اندفاعه الانتحاري كان مجرد تظاهر كاذب وادعاء زائف بالبطولة و اللامبالاة ، دعمه يقينه التام بأن والديه و خاصة والدته لن يسمحا بسجنه وسيخرجانه من هذه الورطة مهما كان الثمن . فكان مطمئنا و غير مستعد لأي تنازل.توقعاته كانت في محلها فقد تطوعت الأم بسرعة للذهاب للرجل المصاب بدل ابنها، فهي أقدر على إقناع الرجل إن لم يكن بذكائها فبدموعها . عقدت العزم و حضرت نفسها للمهمة الصعبة وما إن بزغ الصبح حتى انطلقت الأم نحو فريستها محملة ببعض الرشاوى المساعدة من الوصفات والأكلات وهي تضع اللمسات الاخيرة على خطة الهجوم وتتحضر كممثل يحضر نفسه للدخول لخشبة المسرح وتمثيل دوره ، ويروض جهازه العصبي ليكون تحت طوعه ساعة الصفر .

دخلت المستشفى لتجد إمراة في العقد الرابع من عمرها بمجرد ما ألقت التحية عليها رمقتها الاخرى بنظرة ازدراء واستغراب كمن فتح عليه باب الحمام وهو يقضي حاجته قبل ان تسأل نجية على غرفة الشاب المصاب ، بنفس الوجه المتجهم فتحت الموظفة دفترا وراحت تبحث عن رقم الغرفة قبل ان تزفه لنجية دون النظر في عينيها تم تستدير لاستكمال الحوار مع زميلاتها دخلت نجية للغرفة حيث المريض مستلق على فراش رث ورأسه ملفوف بضماض يغطي جرحه وبجانبه امرأة تبدو أنها زوجته ، لم يمضي وقت طويل حتى انهالت عليه نجية بوابل من التحايا و عبارات

المحبة والود و التمنيات بالشفاء العاجل وكأنها تزور عزيزا غاليا وابتسامة الود والإخاء تملأ ثغرها وصوتها كله نبرات ود ومحبة، مشهد اعتادت القيام به ،أحيانا عن صدق ومحبة حقيقية و غالبا بدافع المجاملة والضرورة الاجتماعية حاولت جاهدة كسب ود الرجل المصاب وخلق ألفة معه وقراءة ملامحه و تعابيره هو وزوجته علها تستشف شيئا يحدد لها أسلوب الاقناع المناسب ، قبل أن تدخل في الموضوع فالانطباع الاول دائما ما يؤثر على صلب الموضوع ويسهل الطريق للوصول للغاية ويفرش ارضا مريحة للتفاوض ويمهد الانسان نفسيا .

هل لديكما اولاد ؟

سؤال تعرف اجابته مسبقا لكنها وجدت فيه الباب المناسب للدخول منه للموضوع

–نعم، ثلاثة.

–تبارك الله ، حفظهم الله ، تربية الاولاد صعبة هذه الايام .

–خصوصا اذا كان ابنك يخرب عقول الاطفال الصغار ويعلمهم قلة الادب .

هجمة مباغتة أدهشت المرأة ، لكن فضلت الاستمرار في الدبلوماسية لإدراكها أنها في موقف ضعف.

–أعرف أن إبني أخطأ ولكنكما والدان وتعرفان غلاوة الابن ، كل الابناء يخطئون خصوصا في سن الشباب وطيشه ولكن هل يضيع مستقبلهم ، إنه شاب في مقتبل العمر ، المستقبل أمامه وهو وحيدنا وكل ما لدينا .

–نحن ايضا لدينا أولاد بسببه كانوا على وشك ان يصيروا ايتام دون أب .

–الحمد لله أن الله ستر والعفو عند المقدرة ، حبسه لن يغير شيئا ، ماحدث قد حدث ، سيدمر عائلة بأكملها ، أنا وأبوه صرنا عجوزين وهو سندنا الوحيد.

–هذا سيفيده ويعلمه درسا ويكف عن الافتراء وإيذاء الاخرين .

كتمت الأم رغبة ملحة في الانقضاض على المرأة وخنقها ،وبملامح يائسة و مستعطفة اردفت :

–السجن لا يعلم سوى الفساد والانحراف وهو نادم على ما حصل ، كان يريد ان يأتي ليطلب العفو منكم لكني منعته ، فضلت أن آتي إليكم وأتوسل إليكم وأرجوكم ألا تحرموني من إبني ، أنا مستعدة أن أقبل يدكم ، إنه كل أملي في الحياة .

كلمات دعمتها بنحنحة ولمعة في العيون تمهد لمشهد درامي عنيف.

–هذه مسؤوليتكم أنت وأبوه وعليكما تحمل النتيجة .

–ماذا ستستفيدان لو قضيتما على مستقبله ؟

–سيكون عبرة لغيره من المنحرفين .

-إبني ليس منحرفا ، إنه شاب وكل الشباب يخطئون ، إنه طيب القلب

-من السهل على الانسان أن يخطئ في تربية أولاده ثم يقول طيش شباب ، إنها جريمة ، جريمتان ، محاولة قتل وتخريب عقل أطفال .

-يوما ما ابنكما سيخطئ وعندها ستضطرون للدفاع عنه مهما فعل ، هذا هو دور الأهل .

جملة قالتها وقد زادت من درجة التأثر كمن يرفع درجة المكيف ، فانهالت الدموع من عينيها وارتسم البؤس واليأس على محياها لإدراكها أن أداءها لا مفعول له ،كمن يزيد جرعة دواء لم تأتي بالثأتير المرجو منها .

زوجة المصاب :-والله إذا فشلنا في تربية ولدنا ليس على الاخرين أن يتحملوا النتائج .

إهانة بلعتها الأم بمرارة أخفتها وراء ابتسامة صفراء مطلقة العنان لدموعها في هجوم تخرج فيه أعتى اسلحتها بعدما شعرت أن الاستعطاف بالكلام لن يجدي نفعا والأجدى تغيير الاستراتيجية ، دموع مصحوبة بشهقات و تنهيدات قد تتطور لأزمة و انهيار عصبي تندمج فيه الأم لحد اقصى قد يصل لفقدان الوعي ، أمر لا يستعصي على نجية التي قررت اللعب بكل أوراقها في سبيل إنقاذ ابنها.موجة هستيريا و نحيب دخلت فيها الأم، امتزجت فيها الدموع و الشهيق حتى صعب عليها التنفس وارتجفت أطرافها ، مشهد حرك مشاعر الرجل و غير تعبير وجهه فمدها بمنديل لمسح دموعها

، تصرف شجع الأم على الاستمرار في خطة أتت أكلها ، ولكن قبل أن ينطق الرجل سبقته زوجته ، بعدما وشت ملامحه بما سيقوله، فتدخلت لمنعه من الوقوع بفخ يسهل فقط على النساء كشفه . فرمقت الأم بنظرة حادة غير متأثرة بحالها و بنبرة جافة أردفت:

–لن يصير إلا ما قدره الله .زوجي مريض وعليه أن يرتاح .

ردت الام بنظرة عدائية للمرأة ثم استدارت للأب ، علها تجد في وجهه بصيص أمل ، ولكن كلام زوجته كان موجها له اكثر من نجية .فصمت بخنوع عكس عجزه أمام زوجته وسيطرتها عليه وقلة حيلته أمامها و أن محاولتها اصطدت بحائط منيع ، خرجت من عنده وقد أيقنت بفشلها ، لعنت حظها العثر ، لولا المرأة لكانت أنهت الموضوع و لكن زوجته اللئيمة وقفت كحجر عثرة، من الواضح أنها الآمر الناهي وزوجها مجرد أداة في يدها .

ياله من زمن عجيب ، رجل ضخم كجبل وتتحكم فيه امرأة .

هكذا عادت لمنزلها يتقاسمها الغضب من جهة والحرج من عائلتها و كيف سيخيب أملهم و يشمتون فيها ، فبرغم شجاعتها و دهائها اللذان تتباهى بهما أمام الجميع و قدرتها على فعل ما يعجز الاخرون عنه ، ودائما تجد الحل لأعصى المشاكل ، وتلين إرادة أعند الناس وأصعبهم مراسا .فشل ذريع هز ثقتها بنفسها وعلي يثق بها

ثقة عمياء ، سيخيب أمله و سيحملها ما سيجري له .موقف صعب ومحرج لا تحسد عليه .

أخيرا وصلت المنزل كان الجميع بانتظارها ووجوههم تنضح بالأمل و الترقب.ويرتسم سؤال ملح يتحرق جوابا شافيا، سرعان ما اتشح الكل باليأس و الإحباط و ساد صمت مزعج و سكون مدو .جلسوا يتبادلون نظرات حائرة ، تبحث عن بصيص أمل .

علي لم يكن محبوبا من شقيقاته ، ولكن مع ذلك لم يتمنين له السوء ، خاصة أن دخوله السجن لن يضره وحده بل سيجلب لهن العار أيضا و يحرجهن أمام أزواجهن ، لذا كن يتمنين نجاته من تلك المشكلة وبقين في المنزل وحرصن على إظهار قلقهن وتعاطفهن مع أخيهن وإلا اتهمن بخيانة العائلة ، اجتماع جعل الكل يتهامس ويتبادل الانطباعات على استحياء و يناقش ويحلل ويقترح كي لا يتهم بالتقصير و قلة الحيلة.

الاخت الكبرى فاطمة :

– لو ساء الوضع يمكننا تهريبه خارج البلاد .

الأم:

– هذا سيزيد من سوء الوضع سيعيش حياته مطاردا و هاربا وبعيدا عنا.

الاخت الأصغر حليمة :

– يمكننا دفع تقرير مزور بأنه لم يكن في وعيه ، أن يعتبر مختلا أفضل من دخول السجن.

الأم :

– مستحيل ، علي لن يقبل أبدا ، يفضل السجن على ان ينظر إليه الناس كمجنون ، إنه معتد بنفسه وكبرياءه لن يقبل إهانة كهذه .

الاخت الاصغر كريمة :

– أرى أن أفضل حل هو أن يدخل السجن ، حتى لو كان أخانا ونحبه ، فهذا لا يلغي المنطق ، يجب أن يدفع ثمن تهوره واندفاعه ، السجن قد يفيده ويصلح طبعه الحاد و طيشه ، علي تعود على فعل كل مايريد دون أن يفكر في العواقب والسبب هو معرفته أنه لن يحاسب على أي شيء ولو خرج من هذه المشكلة دون عقاب سوف يتمادى أكثر ، نيله للعقاب سيفيده ويغير سلوكه ويجعله ينضج ويصبح مسئولا و إلا سيورط نفسه في مشكلة أصعب وأخطر.

بوجه مصدوم و مستنفر انتفضت الأم :

–من له اخت مثلك لا يحتاج للأعداء ، أنت لطالما كرهته وحقدت عليه ، تتصيدين له الأخطاء وتضمرين له الشر، مع أنه اخوك الوحيد ، الآن أخرجي كل الغل الذي في صدرك وبخي سمك ، بدل أن تدعي له ، تتمنين أن يسجن ، ماذا

تركت للأغراب .ابني المسكين لا حظ له ، مكروه من عائلته ولكن بإذن الله لن تنالي مبتغاك ولن يشمت احد فيه مهما كلفني ذلك .

–لكن أنا لم أقصد ان...

–اخرسي ! لا أريد ان أسمع شيئا منك ، ياخسارة تعبي ، ياليتني مت قبل ان اسمع واحدة من بناتي تتمنى الشر لأخيها ، بناتي اللاتي بددت شبابي وصحتي عليهن بدل أن يسندنني ، يسببن لي المرارة يا قلة حظي بين النساء.

جملة قالتها بأسى ذارفة دموعا بحرقة و هي تتنهد بمرارة ، جعلت بناتها يهرعن لمواساتها وتخفيف وجعها وهن يرمقن أختهن الصغرى بنظرة كارهة ، كلها اتهام وإدانة لم يدع لها أي مجال للكلام أو لإضافة شيء فآثرت الانسحاب في هدوء واستسلام المتهم المحاصر من كل جانب دون حيلة ، موقف اعتادت عليه عند كل مشادة مع أمها فتنتهي بإحساسها بالذنب و نبذها من طرف الجميع و مقاطعة الأم لها لأيام وأسابيع حتى تستسلم وتعتذر طالبة العفو بعدما تنهار تحت ضغط اللوم والنبذ اللذان تحاصر بهما ، الإرهاب الذي تواجهه من نظرات وتجاهل كان أعنف من الكلام ،موقف تكرر مرارا وتكرارا حتى تعودت عليه وصارت تفهمه وتتوقعه ،لم تعد حيلة أمها تنطوي عليها ، لم تعد تشعر بالذنب و تتأثر بدموع و نحيب نجية فأدركت أنهما مجرد سلاح تستخدمه كلما احتاجت لذلك ، سلاح فتاك أشبه بسلاح نووي يحسم أي خلاف لصالحها خصوصا مع بناتها وخدعة رغم تكرارها وقدمها لازالت تنطلي

عليهن نظرا لحبهن لها وضعفهن أمامها ، حب و ضعف تبرع في استغلالهما ، خدعة تقلب الحقائق وتجعل المخطئ مصيبا والمصيب مخطئ ، هذه المرة كانت كريمة قد ضاقت ذرعا بحيل أمها وملت من نفس المشهد الذي صار فجا وباهتا و وقوعها في الفخ كل مرة بغباء، لم تعد ترضى بدور المغفل الذي يبلع الاهانة بسلبية دون حيلة أو فرصة للرد ،لم يكن أمامها سوى حل من اثنين إما أن تقلد أمها و تلعب نفس لعبتها مستخدمة سلاحها ، إدعاء المسكنة والإفراط في البكاء ، أمر مستعص عليها فهي لا تملك دهاء أمها والحل الثاني ان تثور ،تنتفض وتواجه دون خوف خصوصا وأنها متهمة أصلا ومغضوب عليها في أعين أمها و أخواتها وسكوتها لا يزيد سوى تأكيد التهمة عليها وإضعاف موقفها وتقوية موقف أمها فكان الادعى أن تفصح بما في داخلها وتنتفض مادام الخصام واللوم لا مفر منهما ، لطالما صمتت فعوملت كإبنة عاقة مغضوب عليها من طرف الجميع و الكل يتخذ موقفا معاديا اتجاهها ،في لحظة قررت ان تنفجر وتقلب الطاولة مهما كانت النتائج،استكانتها لم ولن تجلب لها سوى الاضطهاد و النبذ، على الاقل كلامها سيريحها ، ستبوح بما في جعبتها ، على الاقل ستخفف عن نفسها و بهذا المنطق قررت التمرد، بنبرة واثقة شحنتها بشجاعة و جرأة أردفت :

–برافو ، أداء ممتاز ، لقد انتصرت و فزت علي ، انت الضحية المسكينة وأنا الابنة العاقة والشريرة ، فمن يبكي وينوح يكون هو المحق والذي لا يبكي يكون هو

المخطئ الشرير ، لذا اهنئك ، استمتعي ، ربما المرة المقبلة سأسبقك وأبكي أولا ولكني لا أقدر لأني ابكي فقط حين أشعر بالحزن وليس لدي قدرة على التظاهر والتصنع .

قالت هذا الكلام ورأسها مرفوع يرفض ان يخنع لابتزاز سئمت تحمله ، حاولت بجهد كبير ادعاء القوة والثقة بالنفس التي كانت تخفي خوفا وارتباكا جعلا جسمها يرتجف ، تفاجئت هي نفسها بردة فعلها ، لم تتوقع أن تتجرأ و تتحلى بالجسارة لتواجه أمها وتكشف لعبتها دون خوف أو حرج، علامات الاندهاش والاستغراب لم ترتسم فقط على وجوه الأم والأخوات ، لا بل هي نفسها تفاجئت وصدمت بما اقدمت عليه ، لاشيء أسوء من انفجار بركان خامد لسنين طويلة ولا شيء أسوء من غضب الحليم ، ماشجعها على ذلك زواجها وانتقالها للعيش في منزل آخر مما يرحمها من أسلحة الضغط والإرهاب ، نظرات ، تنهيدات ، تجاهل ، كل ما في الامر سيكون شهر اوإثنان من القطيعة والتباعد مع أهلها تم ينسى الامر وتعود الاشياء لطبيعتها ولكن هذه المرة لن تتحمل العبء والحسرة لوحدها لن تكتم غيظها وتنكوي بنار تملأها مرارة .

غادرت كريمة المنزل وهي لا تصدق ما فعلت ، تاركة امها المصدومة تنوح وتشتكي من قلة حظها في بناتها ، سبب همها وجزاء تضحيتها وكفاحها لتربيتهن ، تجازى بالغدر والشر والنكران منهن وكأنهن عدواتها وضرائرها ،ولكن سرعان ما تناست

الامر وعادت لهمها الاول ، فقدان ابنها الذي راهنت عليه بعمرها و دخوله السجن مصيبة ستدمر كل ما بنيته ، مستقبله سيضيع نهائيا ، ستصير هي وعائلتها موضع سخرية وشماتة بين الكل ، اذا كانت ابنتها نفسها تتشفى مند الان فما عسى الاغراب يفعلون، سمعتهم ستمرغ في الوحل وسيصيرون مضغة ومسخرة للكل ، مصير لا تقدر حتى ان تتخيله ، وهي التي رأسمالها في الحياة سمعتها ، حكم الناس عليهم سيكون اقسى من حكم القاضي وحياتهم لن تكون أرحم من حياة ابنهم في السجن ، سجناء نظرات الشماتة وتلميحات السخرية المبطنة وهمزات ولمازات التشفي ،كابوس مرعب لن تسمح بحدوثه ، الموت أفضل و أهون من ذل وهوان لن ترضاه بعدما عاشت مرفوعة الرأس ، مصير يجعلها موضع شفقة ممتلئة بالتشفي والحقد.مرت ساعات خانقة جعلت المنزل كنفق مظلم لا نهاية له ، حتى لاح من بعيد بصيص أمل يزيح الغمة ويمسح السواد وحيث لم تنفع التوسلات و العواطف ، نفع السلاح الفتاك ، المفتاح الذي يفتح كل الابواب الموصدة ، العصا السحرية التي تسحر العقول وتلين الحجر ، سحر لا يقاوم لا يجادل أو يصد ، أكبر مخدر للضمير وأفضل مسكن للمعاناة والألم وأكبر مداو للكرامة ، سلاح يغير أطراف المعادلة ، يحسم أي صراع ، إنه المال يصنع المعجزة في زمن الامعجزات .عامل حسم القضية في ظرف يوم احد ، حل كالديناميت ، نسف المشكلة من أساسها في لحظات ، حل سحري ولكنه ذو ثمن غال و مكلف اضطر الاب لبيع محله لدفع المبلغ المطلوب ، فرصة استغلها الضحية وزوجته جيدا لحل مشاكلهم المادية و تحقيق طموحهم على حساب ابوين مستعدان

لبيع نفسيهما لانقاد وحيدهما ، مساومة وإن بخسها العقل والمبادئ فقد حللها الواقع والظروف وإن رفضها المنطق فقد أجازتها حسابات المصلحة ، المال يشتري الراحة ، يغرق الانسان في رفاهية وترف يخرس صوت الضمير .حل غال ومكلف يقسم الظهر ولكن لا يغلى على الابن الوحيد وضياع المال أهون من ضياع السمعة والابن ، مرت عاصفة الحادث كصيف حار وخانق جثم على انفاس الكل وحرمهم النوم و عكر صفو حياتهم ، تنفست الأم الصعداء بعدما انزاحت الغمة وأنقذت ابنها من مصير مدمر ، لاشيء قد يكسرها كفقدان ابنها ،عمودها الفقري الذي تتباهى به أمام الكل ونجاته تهون أي خسارة ،حماسها ساعدها على تخفيف حزن زوجها وتهوين مصيبته بعدما خسر مشروعا قضى حياته يبنيه فالأمر جاء في مصلحته حيث أنه كبر في السن وحان الوقت لأن يرتاح من عناء العمل ومشاكله خصوصا ان مالديهم من مال سيكفيهم ليسترهم ويلبي حاجياتهم لما تبقى من حياتهم، كذلك فعلي ليس مهتما بالمحل ولا ينوي استلامه من بعده فالأفضل أنه باعه بدل أن يظل مهموما بمن سيتولاه و يضيع من بعده في يد الغرباء أزواج بناته فجاءت هذه الازمة كشر باطنه خير أو هكذا تصورت نجية وصورت لزوجها لتهون عليه مرارة النكسة التي تكبدها من اجل ابنه الذي ترجاه من الحياة و لطالما شعر انه ناقص الرجولة ومكسور الظهر الى ان جاءه فأعطى معنى لحياته وشد ظهره وجعل حلم خلود اسمه يصير حقيقة تملأه فخرا وسعادة .ابن أعطى ضربة قاضية لطمع إخوته في ماله ، ولكن الحياة فاجأته فأخذت ماله وتركت له الابن .أما علي فقد عاد لحياة الترف واللهو، محاولا نسيان الازمة التي ملأته كآبة، مما جعله

يهرب من المنزل و يتفادى المكوث فيه ، سلوك شجعته عليه أمه للترفيه عن نفسه وتهوية رأسه المشدود من الضغوط النفسية التي عانى منها ، ، خصوصا بعدما تم غلق المقهى وبيعت كل الأجهزة والأغراض بثمن بخس زاد من حسرة الأب ولكن أراحه حتى لا تتكرر أزمة أخرى قد لا يتحملها ، بمرور الايام اعتاد الاب على حياته الجديدة وقرر الانغماس في موجة تدين تقربه الى الله وتمده بالقوة والإيمان الكافي لمواجهة الصعاب وتحمل الصدمات ، أدرك مع السن أنه ليس الجسد وحده الذي يحتاج إلى مناعة تحميه من الجراثيم والأخطار التي تهدده ولكن كذلك الروح تعوز مناعة تقيها من صدمات الحياة وتقلباتها وإلا تخربت ، وهنت وصارت روحا عليلة و سقيمة تفقد الإحساس بطعم الحياة وتصير فريسة سهلة لها .

ظن طويلا أن المال يضمن حماية ويعطي لصاحبه مناعة و أن الاولاد سند و مصدر قوة ، نعمة تغني الانسان وتهون عليه كل سلبيات الحياة ولكن وهو في خريف العمر أدرك ان الله وحده قادر على مده بالصلابة لتجاوز كل شيء برحابة صدر وينأى بروحه من التأثر بأي خطر أو ضرر مهما كان كبيرا فصار لا يفارق القرآن يده ، مواظبا على حضور خطب الجمعة باهتمام وليس بلامبالاة كما اعتاد طول عمره صار حاضرا بالجسد والروح ، مدققا في كل كلمة يسمعها.على عكس ما كان من قبل مستعجلا الخروج و العودة للمنزل ، صار لا يحلو له مغادرة بيت الله الذي يبعث فيه سكينة وطمأنينة ظمئت روحه لها وأغنته عن كل متاع الدنيا وعلت بنفسه فوق ملذات الحياة

و نقماتها .ذات يوم وهو غارق في ملكوت الله يتأمل وينتشي بقدرة الله ورحمته ، فوجئ بجاره الحاج عبد الرحمان يقترب منه على غير عادته ، كان رجلا نحيفا وجهه لوحة تجريدية للمرض ،بعد حوالي ربع ساعة من التحايا والأسئلة النمطية اطمئن فيها الاثنان على حال كل فرد من عائلتيهما والأب يترقب بقلق ما سيأتي بعد المقدمة الطويلة، يستطلع نظرات عبد الرحمان ويتفحصها عله يستنتج ما يروي فضوله القلق ، فاستشف موضوعا يتحرج البوح به ويستفيض في كلام اجتماعي ومجاملات تخفي تردده ، توقف الجار عند موضوع الأولاد واستطرد كثيرا في هذه النقطة مستفيضا في تحليل صعوبة الاحوال و المشقة التي تواجه الابوين في تربية أولادهم وأن تربية الذكور صارت أصعب من تربية البنات و باتت مهمة عسيرة ومضنية ، مستشهدا بالأخطار و الأضرار التي قد يتعرض لها الأبناء ، مهما كبروا تكبر همومهم ويزيد الخوف عليهم كما أنهم يصيرون أكثر عنادا وتذمرا على الآباء ويعاملونهم كأناس مغيبين لا قيمة لكلامهم ، الأصحاب اليوم صاروا هم الأهل و الأحباب .البنات أمرهن سهل ، يمكن إبقاءهن في البيت بعيدا عن كل شيء كما أنه من اليسير ضبطهن و السيطرة عليهن باللين أو بالقوة أما الصبيان فتلك هي المصيبة حين يكبرون ويصيرون اطول من آبائهم وتتسع أكتافهم ويخشوشن صوتهم ، يصيرون كالوحوش المسعورة وبعدما كنا نخاف عليهم صرنا نخاف منهم ، ختم اطروحته بجملة تنهد بعمق وهو بتلفظها "الوقت صعب" جملة صارت من التراث الاجتماعي تلخص سخط الناس وكرههم لواقع مرير وفي نفس الوقت هي وسيلة نفاق وتزييف للحقيقة بإلقاء اللوم على الزمن وكأنه مارد

شرير يسمم حياة الناس ويجعلهم ضحايا مغلوبين على أمرهم ، يسعى الإنسان دائما الى الإيمان بما يريح نفسه وان كان كذبا وينكر ما يضايقه ويعكر صفو حياته حتى وان كان حقيقة فجة واضحة.

عاد الى المنزل وجسمه ينتفض ، حصل ما يخشاه ، صدمة أخرى لا طاقة له على احتمالها ، وكأن الحياة تستفزه ، تستكثر عليه السكينة و الهدوء .دخل البيت يبحث عن زوجته كذئب مسعور يبحث عن حمل . بحث في المطبخ مكان إقامتها الدائم قبل أن يلفته صوت علي قادم من الطابق العلوي أيقن أن أمه معه ، صوت علي خفف من حدة احتداده ، صعد الى الأعلى بتحفظ وارتباك .إقترب من غرفة الأم وهو يترقب بخوف أججه صوت نحنحة زوجته ،وقف عند الباب يستطلع خفية ما يجري ،رأى زوجته ملقاة على السرير و هي تبكي وابنها يلوي ذراعها بشدة و غل محاولا إرغامها على إعطائه المال

لدقائق بقي واقفا جامدا في مكانه بدافع الصدمة ، لكن كان هناك شعور أقوى وأعنف لجم أطرافه وحبس اندفاعه ، إنه الخوف من ابنه ذلك المخلوق البريء الذي حمله يوما ورأى فيه قمة البراءة و النقاء ، مخلوق حرك فيه فرحة لا توصف و سعادة استثنائية ، تحول فجأة إلى مارد يرعبه ، يثير فيه الذعر و الخوف ، في داخله فضل أن يعلل عجزه وجموده بالصدمة والذهول وإن كان قبل هذا اليوم رأى مشاهد مشابهة لا تعد ولا تحصى ربما كانت مقدمة للحالة التي يراها ، تجعله تطورا طبيعيا وغير

مفاجئ ولكن طبيعة الانسان تجعله يصدق ويؤمن ليس بما يراه ولكن ما يحب ان يراه ، بما يريح نفسه أو يكون أقل ضررا عليها .أدرك الأب في تلك اللحظة أنه فقد الكثير من نفسه ، من هيبته و شجاعته وأنه أضحى هيكلا ضخما ولكن هشا وفارغا .وهو يرى إبنه يلوي ذراع أمه ويأمرها بإعطائه المال الذي تخفيه وهي عاجزة تصرخ وتبكي من الأسى ، لم ينتبه الشعور بالشماتة والتشفي ، لم يستمتع بمنظرها الضعيف وغرورها المكسور الذي يثأر لكرامته المذلولة ، بقي ينظر في ذهول كان شرنقة تخفي استسلامه وسلبيته ، جمد اطرافه و جعله كشبح في الظل لا يثير أي حركة.

في لحظة مرت حياته أمام عينيه كشهاب عابر، تذكر في لحظة الالاف الذكريات ومليون تفصيل ، اختصر عصارتها في سؤال ، كيف حدث هذا ؟ كيف صرت هكذا خرعا هشا ؟ مجرد هيكل ضخم ولكن فارغ ، مجرد خيال يملأ عين الناضر ويرعبه ولكنه عاجز عن أي شيء . لماذا أصبحت هكذا، متى و كيف وكأن الحياة فرغتني من كل شيء كبالون منفوخ ينفجر عند أي وخز، يندثر بشكة دبوس تفرغه وتجعله يتهاوى و يتلاشى.مالذي جعلني أصبح هكذا ولماذا لم أدرك ما وصلت إليه ؟ هل هو السن أو المرض هل هذا يحصل لكل الناس أو لي أنا فقط ؟ في أعماقه كان يدرك الحقيقة ، و أن هذه حال من يختار دور المتفرج في الحياة ، من يعتزل في كهف ، من يعيش في غيبوبة اختيارية ليحمي مشاعره من أي هم أو متاعب ، لا يعاني ، لا يتعذب ولكنه لا ينضج لا يتعلم ، لا يصبح أقوى ، قد يكبر جسده وسنه

ولكن عقله وقلبه يظلان قاصرين وغير ناضجين، إلى أن تتسع الهوة بين الشكل والمضمون بين العمر والخبرة .

ولكن لماذا أستغرب ، لماذا أستعجب من حالتي ، عاجز ،مشلول، خائف لاحول ولا قوة لي ، هذا ما أردته .من السهل أن ألوم الزمن والحياة ،أن ألوم زوجتي وأولادي وحظي وسني ، ما أيسر أن ألوم أي شيء آخر ، أن ألعب دور الضحية وأملئ قلبي بالإحباط و الشكوى ، تفكير سيحررني من شعور بالذنب ويمنع ضميري من مضايقتي بأي توبيخ ويرحمني من أي إحساس مؤرق يعكر صفوي وراحة بالي.

الشعور أنك ضحية يريح الإنسان ويعفيه من أي مسؤولية تقلق راحته تبيح له الكسل والاستسلام وحتى الخطأ ، أنا سعيت لذلك ، أمضيت حياتي وأنا جالس على كرسي المتفرج أراقب وأشاهد عن بعد ، بسلبية ،في منأى عن الخوض في الحياة والا شتباك معها منسحبا من معاركها ، ورضيت دور المشاهد الذي يرى الحياة من خلال شاشة تلفاز ، أنا استقلت من دوري كزوج و أب وأخ ، أنا فضلت الجلوس فوق برج عال من حيث أرى كل شيء صغير ا.

لسنوات دخلت في غيبوبة ولكن بإرادتي فقدت الاحساس بما يدور حولي، جمدت مشاعري وعزلت نفسي عن كل المشاكل جنبت نفسي كل شعور سلبي ونأيت بها عن أي شيء يقض مضجعها و يستنزف طاقتي .

كل ذلك مر أمامه في لحظة رأى مالم يرد أن يراه طوال حياته ، لحظة صدمة وصدق خالصة لم يقدر أن يهرب منها ، واحدة من اللحظات حين يقف الانسان أمام حقيقته المجردة دون تمويه ، يخلع فيها كل أقنعته و كلما يغطي نواقصه وعيوبه .

لم يفقه من غيبوبته وغوصه العميق في صفحات حياته سوى مرور ابنه بجانبه يلهث ويبعث شرارات أنفاسه كصهد بركان ثائر ، رمقه بنظرة تحد ولا مبالاة اعتادها الأب منذ زمن ،نظرة كانت كشفرة سرية يفهمها الأب .لوهلة خرج من ذهوله واستنهض بقايا الهيبة التي تركها له الزمن أيقض بقايا رجولة غاصت في سبات عميق منذ أمد ، استجمع بعض الهمة ووضع على وجهه بعضا من ملامح الفحولة ، نظرات قاسية و حادة ، تقاطيع مشدودة ، دخل الغرفة ليجد زوجته ممدة على الفراش تبكي وتشهق بصوت ينم عن معاناة دفينة ووجع غائر ، حالة قلما رآها فيها ، لم يكن بكائها أمرا نادرا أو غريبا لابل مألوفا ولكنه كان بكاءا زائفا ومصطنعا ، مجرد وسيلة للحصول على مبتغى ، لم يكن تعبيرا عن حزن أو ألم وإنما مشهدا تمثيليا ، لكن نادرا ما كان يراها تبكي بصدق بدافع الالم والوجع كما كان الحال ذلك اليوم بحكم العشرة والاحتكاك صار يعرف و يميز بين البكاء الحقيقي والمغشوش صار كمخرج سينمائي مخضرم يميز بين الاداء التمثيلي والإحساس الصادق ، صار يؤمن أن النساء تبكي أكثر من الرجال ليس لأنهن أكثر حساسية بل لأن الدموع سلاح يحسن استخدامه كما يستخدم الرجال عضلاتهم ، وجودها في تلك الحالة جعله يشعر نحوها بمزيج

من مشاعر متناقضة ، شماتة تشفي غليله وتنتقم لرجولته المكبوتة التي دهستها ومرغتها في الوحل و شفقة وتعاطف مع لحظة انكسارها ولكنه استجمع قواه و اتخذ موقع المصلح الواعظ . اقترب منها وهو يستعد للانقضاض عليها في لحظة ضعفها وهي فريسة مغرية للفتك بها، ضعفها شحنه وملأه واستفز أطلال رجولة مدفونة، اقترب منها بصمت دون أن تلاحظ وجوده و دون إنذار قال لها:

-أرأيت إلى أين أوصلتنا جعلت مني أضحوكة ؟

بذهول استفاقت من نوبة النواح .مسحت دموعها وحاولت إخفاء علامات الضعف والانكسار على وجهها لم تدرك أنه رأى كل ما حصل ولم تكن تحب ان يراها زوجها في موقف ضعف.

-ماذا تقصد ؟ عما تتكلم ؟

- تعرفين ماذا أقصد .لماذا كنت تبكين ؟

-لا شيء ، مجرد صداع يمزق رأسي ، الهم والمرض حطماني لم أجد سوى الدموع لأخفف همومي وأريح قلبي .

ابتسامة صفراء ملئها استهزاء من أمسك لصا بالجرم المشهود :

-يا لك من كاذبة، متأكدة أنك لا تخفين عني شيئا ؟

ردت الأم بنفي ضجر و متعال، هنا انتفض الزوج و انهال عليها:

–أنت إمرأة لاتصلح للزواج ، لا تعرف كيف تصون وتحفظ قيمة زوجها بل تذله و تجعل منه أضحوكة أمام الناس .

–أضحوكة ! هذا هو جزائي! لولاي أنا لكنت فعلا صرت أضحوكة ، أنا اللتي فنيت عمري وصحتي وضيعت شبابي وأنا أربي أولادك وأعمر لك بيتك .

–ونعم التربية ، ولد وحيد لم تعرفي كيف تربيه ، جعلت منه مدمن مخدرات ،أمي ربت خمسة رجال لوحدها ولا واحد منهم يتعاطى حتى السجائر .

صمتت الأم لبرهة ثم حاولت المراوغة :–من أخبرك؟ كيف عرفت؟

–عرفت من الناس ، جارنا الحاج عبد الرحمان ، أجلسني كالتلميذ وأعطاني محاضرة في تربية الاولاد وعرفني كم أنا غبي ومغيب ، الأغراب يعرفون ما يجري في بيتي أكثر مني ، بسببك وقفت أمام الرجل كطفل صغير واستمعت له كالأبله دون أن اقدر على الرد.وهو ينظر إلي باستهزاء وشفقة ، الله أعلم كم من شخص آخر يعرف وكم من شخص تهامس علي وسخر مني خلف ظهري ، كل هذا بسبب زوجتي التي بلاني بها الزمان .

لوهلة ارتسم الحرج وقلة الحيلة على وجهها ثم استدركت و أبت أن تسقط في فخ الضعف وتنهار حتى لو كانت على خطأ ، لا يمكن أن تنكسر أمام زوجها حتى وإن حاصرها و عجزت عن الإفلات و تضليله في متاهات تقلب الوضع ، لم تقدر ان

تنفي أو تتهرب فقررت رمي اللوم عليه وتحميله سبب تصرفها ، نجية كانت بارعة في جعل الآخر هو المخطئ :

–لو كنت وجدتك رجلا يعتمد عليه، لما أخفيت عنك شيئا لكن أنت لا تجيد سوى الصراخ والكلام الفارغ.

–متى أعطيتني فرصة للتصرف وأن أكون رب الأسرة وأبا لأولادي ، دائما عاملتني وكأني خيال ظل ، مجرد كومبارس ، حتى أولادي ربيتهم على عدم احترامي وجعلتني أبدو مجرد صورة واهية وفارغة ، لطالما سخرت مني أمامهم وأنزلت من قيمتي .

–من السهل عليك لومي على كل شيء، أصلا هذا ما تجيد فعله.أنا التي كنت أجبرك على العودة متأخرا للمنزل للأكل و النوم و السهر كل ليلة ، والخروج صباح كل أحد وقضاء اليوم خارج البيت مع أصدقائك دون أن تهتم بما يجري . وفي النهاية تلومني بكل وقاحة .

انتهت جولة المبارزة بعدما استنزف كل منهما كل ما يدخره في جعبته من اتهامات وضغينة يدخرها للدفاع عن نفسه ويطيح بخصمه ولكن الوضع هذه المرة أفظع من صراع الديوك الذي شكل هواية زوجية مقدسة وأكبر من رغبة أحدهما في الفتك بالآخر وتحميله مسؤولية المشكلة وأخطر من مجرد ذريعة للتناحر و جلد الاخر ، جلس الوالدان بجانب بعضهما منهكين ومهزومين ، أدركا أنهما استنزفا عمرهما في

محاولة الانتصار على بعضهما والحقيقة أن الزمن هزمهما معا ، خصوصا الأب ، شعر أنه محاصر و مجبر على التصرف ، مأزق سيكشف عجزه و قلة كياسته ، وعلى وجهيهما ارتسم اليأس وقلة الحيلة ، مشاعر انعكست في نبرة الاب:

–والآن ما العمل؟

–لا أنفك أصلي وأدعو الله أن يهديه و يخلصه من شلة الفاسدين الذين جروه لهذه المصيبة.

–إبنك ليس بحاجة لمن يجره ، هو الفساد بعينه

–نعم إنه ابني لوحدي.

–الان تبادل الاتهامات لا ينفع بشيء ، علينا أن نفعل شيئا قبل فوات الأوان

.

–لقد تعبت وأنا أكلمه دون جدوى، أنت تعرف أنه لا يستمع لأحد والعنف لا ينفع معه، فهو عنيد.

–أي عنف ، نحن لم نقدر عليه في صغره كيف سنفعل ذلك الان .

منذ متى وهو يتعاطى ؟

منذ بضعة أشهر.

–وطبعا أنت تمدينه بالمال ، لطالما أعطيته أكثر مما يجب ، طبيعي أن ينحرف من كثر مالديه ، لا يعرف ماذا يفعل بالمال .

–أنا كل قصدي أن أكبر به و أعطيه قيمة أمام أصحابه وألا يشعر بالحرمان من شيء وأن يكون مرفوع الرأس.

–هذه هي النتيجة، لقد رفع رأسه عاليا صار مدمن مخدرات.

–كل هذا التسخير لن ينفع الآن ؟ المهم أن ننقذ ابننا الآن؟

–سأتحدث معه .سأحاول أن أقنعه بالحسنى وإلا سأطرده من المنزل ، لقد تحملت كل حماقاته وهفواته ، ولكن لن أسمح أن يتحول منزلي لمأوى مدمن مخدرات ، أفضل ان يموت.

–من فضلك لا تكن قاسيا معه، تعرف انه عزيز النفس.

تصرف علي كان صدمة بالنسبة لوالديه وضربة قوية زلزلت كيانهما أما بالنسبة لعلي فكانت أمرا طبيعيا ، خطوة عادية في طريق اتخذه منذ زمن ، طريق الملذات والمتع ، بالنسبة له الحياة لاتعني الكفاح والنضال لتحقيق الاهداف و ليست سلسلة متتابعة من الافراح والاطراح و لكن مجرد عطلة للاستمتاع ، مغامرة للغوص في المتع والملذات ، الواحدة تلو الأخرى ، دون عناء و تعب ، منذ صغره ، اعتاد الانخراط في تجارب مسلية حتى يمل و يبحث عن تجربة أخرى ، ينفر من أي شيء يعكر صفوه و لا يبعث فيه النشوة و السعادة المجانية ، لذا كانت المخدرات المتعة الجديدة التي

حققت له استمتاعا وحماسا من مستوى أعلى . مغامرة مثيرة لا تقاوم مهما كانت تكلفتها ، منذ متى كان يهتم او يكترث بعواقب أفعاله ، منذ متى كان اي جانب سلبي او صبغة لا أخلاقية حاجزا يردعه و يمنعه من الانسياق خلف شهواته .

بعد ساعات ساد فيها صمت القبور على المنزل ، دقت الساعة منتصف الليل تم الواحدة والثانية ، أيقن الأب انه لن يعود قبل الفجر ، أصلا هو معتاد على ذلك خصوصا حين تكون هناك مشكلة .كان يفضل البقاء خارجا طوال الليل ثم يعود عند بزوغ الفجر حتى يتفادى اللقاء والمواجهة مع أي كان ويمضي طوال اليوم نائما فلا يتعاطى مع أحد، معرفة والديه بعاداته لم يمنعهما من انتظاره بسبب توترهما وعجزهما عن النوم حتى وصل . دخل بصمت وتكتم ولكن بدا عليه الانتشاء ، التعب أثقل خطواته و وشى بسهرة مجهدة استنزفت قواه ، دخل الى غرفته ليجد أمه وأباه جالسان بانتظاره فشعر كسائق مخمور توقفه لجنة مرور ، وأن الليلة ستختم بشكل سيئ ،أمر لم يفزعه وإن أثار امتعاضه فهو كان قد تجاوز مرحلة الخوف من والديه منذ زمن ، ولكنه امتعض من موشح ممل بانتظاره ، لم يتطلب الامر كثيرا حتى عرف موضوعه ، تعابير وجهه كانت كافية مغنية عن أي رد ، صلابة و ازدراء ورفض لأي دروس ومواعظ، و نظرات تعلن عدم جدوى أي كلام .استجمع الأب قواه و قرر القيام بواجبه درءا للعتب ولو بلا جدوى .حديث طويل دار بين الاب وابنه على مراحل متعددة تعددت فيها لهجة ونبرة الاب تارة خافتا ومترجيا وتارة عنيفا وحادا وتارة يائسا

ومستسلما أما علي فنبرة صوته لم تتغير ملأها الغطرسة والتبجح ولكن كل محاولاته اصطدمت بحائط منيع لم تحركه مشاعر الاستعطاف ولا عبارات التهديد والشجب حتى وصلت المحادثة الى باب مسدود ، فخير الأب ابنه بين الخضوع للعلاج وترك أصحاب السوء مع يقينه أن إبنه قد يكون أخطرهم وبين رحيله من المنزل ،تهديد جعل علي يستشيط غضبا فصعد الدم إلى رأسه و احمرت عيناه ، تعبير كان أبلغ من أي كلام ، هم علي بتوضيب بعض حاجياته فيما سارعت الأم إلى محاولة تنيه مترجية إياه ألا يتركها وأن والده يخاف عليه و لا يقصد طرده وأنها لا تتحمل بعده عنها ، كل ذلك لم يبرد جام غضبه وكبرياءه الذي طعن .اتجه نحو الباب غير مبال بتوسلات أمه ولهفتها عليه مندفعا بعنفوانه و عيناه تومض شرارة وعدوانية ، قبل ان يفتح الباب ويغلقه بعنف شديد ، صوت الباب وهو يغلق بعنف كان بالنسبة للوالدين كباب الامل الذي أوصد فقطع آخر خيط يربطهما بابنهما الوحيد ، ضربة قاضية للأحلام التي نسجاها له منذ ولادته ، مستقبل باهر حلما به يتبخر ولو أن رد فعلهما كان متباينا لكن في أعماقهما قبعت نفس المرارة ، على الأقل الأم كان لها فرصة التفريغ و التنفيس عن وجعها وخوفها ، صرخت بأعلى صوتها ، فجرت دموعها ، في حين بدا الأ ب متماسكا و صامدا ولو أن ملامح وجهه كستها الخيبة و هزمها الإحباط و أدبلها الهم ، سكوته و هدوءه شجع الأم على الانقضاض عليه ومعاتبته على بروده ولا مبالاته وكيف أنه بطيشه وعدم كياسته أرسل إبنه الى الهلاك .ظل صامتا عن عجز ووهن لم يتحمله جسده فانهار و سقط على الأرض ، فجأة إنطفئ نور الدنيا أمامه

حتى وجد نفسه ممددا على سرير مستشفى محاطا بوجوه يكسوها الخوف والقلق ، وجوه بناته كانت مرتعبة تستجدي الد عم والمواساة أكثر منه ، في الغالب يكون حال المريض أقل صعوبة من مرافقيه ، المريض مهما بلغ ألمه يكون ألما جسديا ، يمكن تهدئته بمسكن أو منوم يغيبه عن الوعي و يحصنه من أي وجع كما أن وضعه يجعل الكل يواسيه و يسعى للتخفيف عنه فيعامل بلطف و حنان و يتسارع الجميع لارضاءه و يتغاضى الكل عن عيوبه و أخطائه و يحقق له كل ما يريد ، فيكون مرضه مصدر قوة يؤهله لفرض ما يريد ،أما المرافقون فالمهم معنوي يصعب تسكينه ،فانتظار خبر قد يحطم نفسيتهم يكون في حد ذاته جحيما لا مهرب منه ، الانتظار مابين الأمل في الاطمئنان عمن يحبون والخوف من صدمة أقوى من قدرتهم على التحمل ، هذه الدوامة تجعل المرافق أضعف وأهون من المريض فغيابه عن الوعي رفاهية قد يحسد عليها، أما معاناة مرافقيه تجعلهم يقاسون كل لحظة من الخوف ليس على الشخص المريض ولكن على أنفسهم من ضربة تزلزل روحهم وتفقدهم توازنهم ،الخوف على أنفسهم من شعور قاس لا طاقة لهم على تحمله ، يشعرهم بهشاشة كيانهم، حتى حين نفقد شخصا عزيزا ، يكون حزننا عليه ، حزنا على أنفسنا ، على جزء منا قد مات ، على مصدر دعم مادي أو معنوي يختفي ويحرمنا من سند يقوينا و يملأ فراغا في حياتنا ، وبرحيله نصير أضعف و حياتنا أفرغ لذا كلما كان اعتمادنا على الشخص كبيرا كلما زاد حزننا عليه و ألمنا على فراقه .

مرت أيام وانزاحت الغمة وعاد الاب الى منزله ، بعدما استعاد قليلا من صحته المتهاوية كسيارة متهالكة رممها ميكانيكي ، وعكة صحية رآها اعلانا وتذكيرا له بأن مدة صلاحيته قد انتهت كإنسان ولم يبقى له سوى وقت ضائع بعدما نفد رصيده من الصحة وأعلن جسمه الاستسلام امام ضربات الحياة ، إنذار جعل الأب يمعن في التفكير ويراجع حساباته وبسوي كل أموره العالقة ، مرت أيام والأب غارق في صمت وهدوء أقلق زوجته وجعلها ترتاب ولكنها وجدت في هدوءه ومرضه فرصة لمصالحته مع ابنه أمر لم يكن صعبا بعدما سئم علي من حياة الصعلكة والتشرد بين الاصحاب وافتقد دفئ المنزل وحياة الترف و الدلال ، رأت الأم ان مرض زوجها فاتحة خير للم الشمل وإعادة ابنها لحضن عائلته ،المرض الشديد أو أي ازمة حقيقية كالزلزال نقطة فاصلة رغم ما يحدثه من أثار سلبية لكن يعطي الانسان الفرصة ليبدأ من جديد ، فرصة لإعادة الحسابات و تغيير المواقف مهما كانت ثابتة ومهما كان الانسان عنيدا .عاد الابن الى منزله ووعد والديه أنه سيحاول جاهدا الاقلاع عن عادته السيئة و إصلاح سلوكه. بادرة تقبلها الاب على مضض ودون اقتناع ولكن بدافع قلة الحيلة والعجز الذي يدفع المرء الى اللامبالاة و التعلق بأمل واهن ، بعد يومين دق باب المنزل كان أحد الجيران ، كانت امرأة مسنة وزوجها يعيشان بمفردهما بعد ما هاجر كل أولادهما ، استغرب الاب زيارتهما فهما نادرا ما يزوران أحدا ماعدا في الاعياد ، المناسبة التي يجبر فيها الجيران على تحمل بعضهم باسم الجيرة وصلة الرحم ،لهذا ارتاب الاب والام وتوقعا أن أمرا ما قد حصل مما حرض فضولا اختبئ خلف عبارات

الترحاب والحفاوة ، في الحي الذي تسكنه عائلة علي ، كانت هناك عادات شائعة منها اللف والدوران وإتباع الطريق الغير مباشر ، يتفادى الجميع الصراحة والمباشرة يهوى ويتلذذ بالمراوغة ، الكل يتجنب قول ما يريد لابل أحيانا يقول عكسه أو يغلفه ويلفه بألف غطاء و يتخذ طرقا ملتوية لإيصاله ولو من دون سبب، المماطلة صارت فنا و تقليدا مقدسا وحتى ولو لم يكن له داع ، يستمتع المرء برؤية الفضول في عيون المستمع وتعطشه للحصول على معلومة .تعطش يعطي المتحدث إحساس بنشوة غريبة ، إحساس يستلذ بإطالته . الاب والأم سايرا أحاديث الضيفين باهتمام مصطنع يخفي ضجرا متشوق لمعرفة سبب الزيارة ، خصوصا أن ملامح الزائرين كانت تنبئ بأمر خطير دفعهما للمجيء ، بدأ الضيف يدخل في صلب الموضوع :

-منذ حوالي اسبوعين قمنا بتغيير غرفة النوم ولأن صحتي ضعيفة كما تعرف بسبب السن طلبنا من علي، الذي كان مارا بجانب البيت ، المساعدة في نقل الاثاث ولكن بعد توظيبه اكتشفت زوجتي ان خاتمها الذي كان في احد الادراج قد اختفى بحثنا في كل مكان ولم نجده .اكفهر وجه الاب والأم و تبادلا نظرات الامتعاض والصدمة ، قبل ان تنفجر الأم وتستشيط غضبا في وجه زوارها مدافعة عن ابنها وان هذا اتهام باطل فابنها ليس لصا ولا متشردا ومعدما ليسرق أي شيء .بنبرة اقل عدوانية واحتدام صدق الاب على كلام زوجته مشككا ومستهجنا اتهامات جيرانه المبنية على مجرد شكوك واحتمالات و أن من الظلم اتهام علي بهكذا ذنب ، بعدما ساعدهم .

امتعاض الوالدين لم يحرج المتهمين لا بل شجعهما على المضي بحدة أكبر، وأزاح ستار الحرج الذي تفرضه الجيرة والعشرة، فأسهب الرجل:

–الأمر ليس شكا ونحن مسنان حجينا بيت الله ولا نرمي الناس بالباطل ولو لم نكن متأكدين لما جئنا اليكم فابنكم هو الوحيد الذي دخل غرفة نومنا و عرض علينا المساعدة لإدخال الاثاث للغرفة كما أنه كان واقفا قرب الدرج الذي يحتوي الخاتم .

كلام جعل وجه نجية يشتعل احمرارا و الحرج يتملكها و لكنها كانت أقوى و أشجع من أن تقع فريسة الإحراج.صمت قاتم ساد لبرهة عكس ضيق الوالدين واستشعرته الجارة المسنة فقررت أن ترأب الصدع و تحافظ على حبل الود مع جير انها فاستدركت بنبرة ودودة :

–نحن جيران وأهل وعشرة عمر ،نعرف صعوبة الاولاد وما يسببونه من مشاكل ومتاعب و نحن لسنا هنا للانتقاد و اللوم ، لو أردنا المشاكل لذهبنا الى الشرطة ولكن تقديرا لسنين الجيرة ولأجلكما لا نريد توريطه في متاعب اخرى وتدمير مستقبله فهو رغم كل شيء مثل ابننا ، نحن هنا لنجد حلا وديا و كل مانريده هو استرجاع الخاتم فلديه قيمة معنوية كبيرة جدا .

انتهت الزيارة بمغادرة الضيفين وودعتهما نجية ببرود مشتعل و نظرات قاتمة لم تفلح هده المرة تقاليد "الصواب"و"الحشمة" أن تداريها. واجه الابوان ابنهما بما

عودة للأعلى

حصل ولم يجدا منه سوى أن أنكر كلما حصل بانفعال غوغائي ، اعتاداه وأكد لهما شكهما فيه وبدد أملهما في احتمال براءته، في حين أرادت الأم التظاهر ببراءة ابنها و نكران تورطه في دلك ، فضل الاب تسوية المسألة ودفع ثمن الخاتم لصاحبه لتلافي مزيد من المشاكل والجلبة وتجنب الفضائح .

مرت أيام والمنزل يغوص في سكون كئيب وبارد وصار المنزل كأنه بيت أشباح ، انعزل الاب عن الحياة واعتكف في غرفته ، إلتزم بالصمت وفضل الانعزال ،نزل عليه سلام وسكون ، كان مريحا لكل من الابن والأم وخفف من حدة التوتر وبدد المشاحنات والمناكفات التي يشتعل فتيلها من وقت لأخر فيشد الاعصاب ويكهرب جو البيت و ينبش قصصا قديمة ، فجاء الصمت المخيم على البيت ليضفي عليه سلاما و سكونا ظاهرين .

دخل الاب في رحلة تدين ودروشة فعكف على قراءة القرآن وعزف عن كل عاداته فلم يعد يشاهد التلفاز ولا يجالس أصحابه ، أصبحت قراءة القرآن شغله الشاغل ، اقتنع أن القرآن هو سبيله الأكيد للسكينة و الطمأنينة . الناس تقبل على القرآن في وقت الشدة والأزمات في لحظات الضعف والكرب ، تبحث عن مصدر قوة و دعم ، يشحن روحها بالصبر والإيمان الكاف للنهوض من أي كرب أو حين تقترب من نهاية العمر ، ويقترب وقت الحساب فيصير الانسان كالتلميذ الكسول ، الذي يدمن الدراسة حين يقترب الامتحان ، ويعزف عن كل ما يلهيه من متاع الدنيا

.الملفت أن أغلب الناس تقرأ القرآن دون وعي ، دون فهم ، دون تمعن في مغزى ما تقرأه أو الرسالة الموجهة من خلاله ، يقرأ كأنه تعويذة لا نفهمها ولكن نؤمن بمفعولها وأن مجرد ترديدها دون فهم كاف لينبعث السحر منها وتصنع العجائب ، كلام لا ندقق في معناه ونؤمن أن مجرد النطق به كاف ليخلصنا من أي شعور سيء ويشفي روحنا من علاتها ويحقق امانيها ،نحب أن نؤمن بالسحر بالا منطق وأن تتحقق رغباتنا بعصا سحرية ، ايا كانت هذه العصا.

في أحد الايام خرج الأب من سباته وفك اعتكافه ،خرج من غرفته وقد انبعثت فيه حيوية ونشاط غير معتادين ، اجتمع ببناته خفية وأعلمهم بقراره .

أدرك الأب أن ساعته قد قربت ، كثير من الإ شارات كافية لتعلن قرب محطة نزوله وعليه توظيب حقائبه ويستعد للنزول ، طوال فترة اعتكافه ، اعاد شريط حياته ، كالمخرج يقيم فيلمه بعد انتهاء تصويره ليرى ما احسن فعله وما اخطأ فيه ليصحح و يرقع ما يمكن ترميمه ، الإنسان حين يقترب من النهاية يتخلص كل الصفات البشرية السلبية ، الطمع، الأنانية ،الكره ....، ربما الخوف من الموت يطهره ويقتل داخله كل غريزة ونزعة شريرة. الخشية من الحساب و انقضاء الصحة والعمر الذي ينضب لا يترك مجال للصراع وإطلاق العنان لأ بشع مافي النفس البشرية ، كما حين يقرب وقت مباراة كرة القدم للنهاية ، فيكف اللاعبون عن التصارع والتناحر ، نفاذ الزمن منا يجعلنا نتخلى عن أحلامنا لأنه ليس لدينا مستقبل لنحققها ، فبالتالي رغباتنا تموت

عودة للأعلى

و تموت معها كل المشاعر التي تتولد عنها ، نزهد في الدنيا ،كلما ظننا أن الموت بعيد ، كلما أمعنا في الخطأ وارتكاب الذنوب مقتنعين أن أمامنا وقت كاف لإصلاحها والتكفير عنها ، الوقت هو الوقود الذي يغذي أحلامنا ، هو التراب الذي تنبت فيه رغباتنا ، هو الفيتامين المولد للأطماع ، حين ينفذ تتلجم الرغبات ، سواء كنا كسالى أو طموحين ، نملك القدرة أو عاجزين ،نظل نشتهي مادام أمامنا وقت ، مهما كانت تطلعاتنا متاحة أو مستحيلة ، سهلة أو صعبة المنال ، طالما هنالك زمن ،نحلم بإرادتنا أو رغما عنا وبالتالي نحسد ، نكذب ، نظلم ...

خرج ذات يوم بعدما أدى صلاة الفجر وكانت على ملامحه علامات السلام والعزم على أمر ما ، ملامح كانت غريبة و جديدة على زوجته التي حزرت نيته على القيام بأمر ما دون علمها ، وظلت طول فترة غيابه تتساءل وتحزر ما قد يكون مقبلا عليه خاصة مع طول فترة غيابه وعدم رده على اتصالاتها ، لم يكن من شيم نجية القلق على زوجها مهما طال غيابه مع أن زواجها به كان تقليديا ، لم يكن عن حب ، في وقت كان الزواج عن حب ضربا من الجنون وحماقة تثير السخرية ، لكن كان يفتقد حتى حميمية الزواج التقليدي والمودة التي تولدها العشرة والاحتكاك اليومي ، كل السنوات والأيام لم تخلق بينهما أي نوع من التقارب ، كان دائما هناك جدار سميك بينهما لم تذبه الأيام و الليالي والغربة التي خلقت بينهما لم تزد سوى تغلغل وتعمق مع السنين ، فلم يسبق لها أن اتصلت به الا عند احتياجها لأ مر منه .لم يسبق ان

اتصلت لتطمئن عليه .حتى حين كان يمرض أو يصاب بوعكة ما كانت تنفعل عليه وتوبخه وتثور ضده ليس خوفا عليه بل لكونها تجد فرصة لا تفوت لممارسة هوايتها المفضلة ومتعتها الحقيقية في تأنيبه وبخ وابل من الإهانات والانتقادات يبدأ بتهاونه في صحته ليشمل عيوبه الاخرى التي تتلذذ بتعدادها مرارا و تكرارا دون ملل أو كلل بنفس الطاقة والحماس .لذا كانت تتحرق لأي فرصة تنقض فيها عليه .

عاد الأب إلى المنزل بعد غياب ساعات وهو في حالة هدوء وسكون تم توجه لغرفته واللامبالاة واضحة

على وجهه ، لم يخرجه منها فضول زوجته ولهفتها لمعرفة ماكان يفعله خارجا مكتفيا برد مقتضب :

-خرجت لأ شم الهواء

جواب فهمت الأم معناه الحقيقي وهو أنه لا يريد إطلاعها على ما يخفيه و لا يريد الجدال معها ،قبل أن يعود لغرفته واعتكافه، رده لم يزد الأم سوى حيرة وقلق ، خصوصا بعدما لمحت انه يحمل أوراقا يخبئها تحت عباءته ولكنه غير بارع في إخفاء الامور ، خصوصا عن زوجة لماحة وفطنة كزوجته ، رغم ارتيابها فضلت الصمت وعدم الجدال معه ونبش هدوءه وعزمت كشف ما يخفيه بطريقة اخرى ، في اليوم التالي وهي في السوق التقت نجية بإحدى معارفها ، اللواتي تتشارك معهن بعلاقة غريبة يصعب وصفها بلقب محدد ، لم تكن صديقة أو عدوة وفي نفس الوقت كانت تجمع الصفتين

فهن كن معرفة سنين طويلة بحكم الجيرة ، يتبادلن عبارات الود والمحبة ويتبادلن الزيارات بشكل دائم حيث يمضين ساعات طويلة في تبادل الحديث عن كل ما لا يخصهما ، عادة كان تشي بحميمية وقرب بالغين يحضران المناسبات العائلية ،يضحكن ، يتهامسن و يثرثرن ولكن علاقتهما كان لها وجه آخر ، فكنا يخفين أسرارهن عن بعضهن، تحرص كل واحدة حرصا شديدا على كتم تفاصيل حياتها عن الأخرى ،يخفين الأفراح و الأ طراح خوفا من الشماتة والحسد والنميمة ،كل منهن كانت تنم في الأخرى وتغتابها و تستاء إذا صارت هي نفسها موضوع نميمة .كانت علاقتهن مليئة بالتناقضات وحاملة لأكثر من وجه و تتخذ أكثر من اسم .

بعد تبادل التحيات والمجاملات ،لمحت الجارة الى زوج نجية وكيف بدا متعبا ومنهكا ذلك اليوم عندما صادفته في مصلحة التوثيق مع بناته ، حتى انها استغربت خروجه وهو مريض من دون زوجته ، كل هذا و نجية تستمع مخفية ملامح المفاجأة والاستغراب و هو، أمر كانت بارعة فيه ، كانت تجيد إخفاء مشاعرها مهما كانت مستفزة وتكتم انفعالاتها بمهارة تثير الحسد ، تعرف كيف تتحكم بنفسها وتعبيراتها في أصعب الظروف خصوصا في حضور غرباء ، لم تفقد يوما السيطرة على تعابيرها وهذه الموهبة كانت واحدة من الصفات التي تميزها وتعطيها قيمة بين النساء الاتي تعرفهن ، وهكذا بدم بارد استمعت لكل ما قالته جارتها وهي تسايرها بهدوء

أخفت وراءه قلقها الذي أكد شكوكها وشغل جهاز الانذار لديها مما جعلها في طريق عودتها تفكر بألف احتمال ممكن .

لما أخفى عنها ؟ لم يفعل ذلك من قبل ، لم يجرؤ على فعل شيء دون علمها وموافقتها من أين أتته هذه الجرأة .لطالما كان عاجزا عن فعل أي شيء دونها ، حتى أنها كانت تستفز من اعتماده عليها في كل شيء ، وكأنه طفل صغير يتبع أمه ويشعر بالضياع من دونها ،تصرف غريب لم تعتده وهو كفيل بأن يثير حاسة التوجس ويدق ناقوس الخطر لديها .عند عودتها للبيت توجهت لغرفة نومهما حيث كان ممددا يغط في نوم عميق ، راحت تفتش في كل مكان عن أي ورقة تمنحها أجوبة عن أسئلتها و تفك غموض تصرفات زوجها ، الذي سرعان ما أيقظه ضجيج أحدثته دون اكتراث وهي تبحث بين الاغراض ، حتى أنها فكرت في إيقاظه ومواجهته ولكن فضلت البحث بنفسها ليس خوفا منه ولكن تفاديا واختصارا لنقاش طويل و مشادة ستتعب أعصابها ،استيقظ الأب والانزعاج على وجهه ، لدقائق فتح عينيه باحثا عن مصدر الصوت ليجد زوجته تنثر الاغراض بضيق واضح ، لم يصعب تخمين دافعه ومع ذلك سألها :

-ماذا تفعلين؟ عما تبحثين؟

رمقته بنظرة عاتية وأردفت: ماذا ذهبت تفعل في مكتب التوثيق ؟ ماذا يوجد في الورقة التي كنت تخبئها ؟ مالذي تخطط له من وراء ظهري؟

صمت الأب طويلا وحاول مماطلة الأم والتهرب من الاجابة و لكن لوهلة قرر البوح لها ليس خوفا منها وانصياعا لإرهابها ولكن فجأة قرر الافصاح عما يخفيه ، جرعة من القوة والامبالاة ضخت في عروقه ، جعلت ردة فعل زوجته التي لطالما هابها تهون ، ربما هو فعل المرض الذي يغير نظرة الانسان للحياة و كيفية تعاطيه مع صراعاتها اليومية .يصير الانسان قويا حين لا يجد ما يخسره .المرض بقدر ما يضعف صحة المرء يقوي روحه ويبعث فيه حكمة وبصيرة كبيرة.بنبرة هادئة وحاسمة لم يهزها سخط الأم و لا نظراتها المرهبة، أردف الزوج:

-ذهبت لكتابة وثيقة بيع للمنزل لبناتي الاربعة .

بعينين مفتوحتين وملامح مشدودة جلست فوق السرير تستوعب الصدمة التي فاقت توقعها قبل ان تردف : -ماذا فعلت ؟ هل جننت ؟

-لا لم أجن ، فعلت مارأيته صوابا ، لم أخبرك لأتفادى الشجار معك ، فأنا أعرف طبعك ،لكن الان لايهمني إن عرفت ، يمكنك الصراخ كما تريدين لكن صراخك لن ينفع .

-لقد فقدت عقلك ، كبرت و شخت و خرفت ، كيف تبيع هذا المنزل دون علمي ،لبناتك وأنا؟ وابنك؟ ألا تخاف الله ؟!

-بلى أخافه ولأني أخافه فعلت ما فعلت ، أريد ان ألقاه دون ذنوب أو على الاقل بذنوب أقل، إبنك لايملك شيئا من المنزل فقد أخد حقه وأكثر ، هل نسيت

المتجر الذي بعثه بسببه والثروة التي دفعناها كي لا يسجن ، إضافة أنا فعلت ذلك لأجلك كي أضمن أن تبقي في المنزل من بعدي على الأقل بناتك لن يطردنك من المنزل ، أما هو فلن يتردد في بيع المنزل ورميك خارجا .

صمتت الأم لبرهة وقد لمعت عيناها ثم أردفت:

-هذا لا يعني ان تحرمه من حقه ، إنه إبنك ، ماذا سيحل به ، ستتركه مشردا ، إنه ابنك يارجل ، اتقي الله فيه !

-أعرف أنك لن تقتنعي مهما قلت ولن تغيري رأيك حتى وأنت تعرفين أنك على خطأ ، أنا أحاول فعل ماأراه صائبا دون أن تعميني غريزة الأبوة وحبي لإبني ، لن تنفعيني لا أنت ولا إبنك حين أقف بين يدي الله ، وعلى العموم ماحصل قد حصل ولن أتراجع وأي كلام الآن هو مضيعة للوقت فوفري عليك وعلي المناهدة .

قالها بنبرة جديدة لم تعتد ها نجية، نبرة كلها حسم وعناد، يغلق أي باب للكلام.

غادر الاب المنزل وترك زوجته غارقة في أفكارها . كيف تغير الزوج الذي كان كتابا مفتوحا أمامها وعجينة طيعة بين يديها .ولكن إصراره وعناده لن يكسر إرادتها ،لن تنصاع له بسهولة مهما قال ومهما أبدى من تصلب ، فلن يفرض عليها إرادته ولن يفوقها مكرا ودهاءا ولن يفرض عليها وضعا لا تريده .

انقضى اليوم والأب غائب عن المنزل والأم تنتظر بفارغ الصبر عودة ابنها ، بمجرد دخوله طلبت منه أن يتبعها لغرفته بملامح جادة جعلته يطيعها دون تعليق .سردت نجية لابنها كل ما عرفته بعد تمهيد طويل حاولت فيه تهدئته ،ولجم اندفاعه ودفعه للتصرف دون رعونة. استمع اليها بعدم اكتراث وضجر من يشاهد فيلما مملا للمرة الألف ، فهو يعرف أمه ،كباقي الامهات والآباء تعشق الخطب وتختصر مهمة التربية في إلقاء المواعظ ، تغوص في كلام مطاط وتلمح بالإشارات والهمزات قبل أن تبوح بماتريده ، حاولت جاهدة أن تخدره وتستبق ثورة غضبه الأ عمى ، داعية للتعقل والنضج ،كلام عبثي لا طائل منه لم يمنع ما خشيته ، إعصار الغضب الذي يهيج منه فيجعل ساكني المنزل من كبيرهم لصغيرهم يرتعشون ويرتجفون ،حين يستيقظ ذلك الوحش القابع داخله ، يتحول لكائن آخر .

نهض منتفضا وأمه تحاول عبثا السيطرة عليه.

:كيف يفعل هذا بي ؟كيف يتجرأ أن يحرمني من حقي ، سوف يدفع الثمن

!

بصوت مرعب كرعد ينبئ بعاصفة هوجاء ، هم متجها نحو الباب غير عابئ بأمه التي تبعته ساعية لتهدئته، فتح الباب وخرج تاركا أمه تناديه بيأس .أغلقت الباب بعدما يئست من التفاته إليها ، مفضلة عدم إثارة فضيحة و إسماع الجيران لمشاكلها، راحت تتوقع السيناريوهات والاحتمالات ، لم تكن تقصد أن تتسبب في مواجهة بينهما

، كانت تنوي أن تقنع ابنها بالتحدث مع أبيه وكسب ثقته فيغير قراره ، هذا ما أرادته ولكن كانت تعرف ان هذا تصور مثالي و مستحيل فهي تعرف طبع إبنها وردة فعله كانت أمرا بديهيا ، أقنعت نفسها أن نيتها كانت سليمة ولو تسببت في كارثة فهي تعفيها من أي مسؤولية ، إضافة الى أن زوجها هو من أشعل النار وعليه تحمل العواقب ، هكذا هدأت من تأنيب ضميرها ، قررت متابعة ما سيحدث بهدوء وأعصاب باردة .جلست تنتظر عودة زوجها و ابنها ، فكرت في أن تصمت ولا تقول شيئا ربما لن يفعل أي شيء ، فهو دائما ما يبالغ في ردة فعله ،يصرخ و يثير زوبعة دون أي فعل ، ربما سيهدأ ويعود للبيت دون إثارة أي مشكل، هو عصبي و متهور لكنه طيب القلب ، سيلف في الشوارع حتى الليل تم يعود للبيت و ينام في صمت ، الصمت ، الحل المثالي لكل المشاكل ، لطالما ظنت أن السكوت والصمت هو الحل لمشاكل العائلة حتى ولوكان هذا الصمت يخفي براكين من الغضب والسخط ، تفرح و ترسم ابتسامات زائفة على وجهها ولو انها قناع تظنه كاف لمحو اي جرح ، تعالج النزاعات والخلافات بالتجاهل واللامبالاة وتظن أن الهروب من مواجهة الاخرين ومواجهة النفس كاف لتفادي أي ضرر نفسي ، ولكن ليس هذه المرة ، بمجرد دخول الاب لم تدرك نجية حتى رمت القنبلة في وجهه ، حاولت التماسك وعدم اظهار توترها وشعورها بالذنب حتى لا تتسنى له فرصة الانقضاض عليها ، ولكن الاب فاجئها باللامبالاة وعدم الاندهاش ، كان يتوقع ان تخبره فلم يستغرب فعلها ولم يرد ان يفرحها برؤيته مضطربا و خائفا لذا تظاهر بالبرود و عدم الاكتراث ، رمقها بنظرة كلها ثبات وفضل

عودة للأعلى

الصمت وعدم التلفظ بكلمة تروي عطشها وتركها فريسة القلق و التوتر ،اتجه لغرفته دون النطق بكلمة ،كان يعلم أنه لا جدوى من النقاش و أن الكلام أحيانا يكون كمن يفتح جرحا و يجعله ينزف مجددا ، يلهبه ويجدد ألمه دون أي طائل ، لذا فضل الانزواء في غرفته حفاظا على أعصابه وما بقي له من صحة وإن تملكه شعور بالقلق و الخوف ، حاول جاهدا تجاهلهما لكنهما كانا اقوى منه، زادت حدتهما عند سماعه لباب البيت يغلق ، فجأة تبخر الهدوء وانهار البرود ،كان صوت الباب كجرس المواجهة في حلبة ملاكمة ، وسمع صوت أقدام تصعد الدرج وصوت زوجته تحاول ان تهدئ ابنها و تلجم غضبه ، دخل علي الى الغرفة ليجد والده ممددا على السرير ،كان هادئا متمالكا نفسه ،ولكن مظهره القوي الواثق لم يخدع علي الذي يعرف اباه جيدا ويعرف هشاشته و ضعف شخصيته فرمقه بنظرة إستباقية أطلقت عليه شحنة غضب و سخط لا تنبئ بخير وتكشف داخله الذي يغلي فيحطم جدار الجسارة التي يحتمي به الاب ، اكتفت الأم بمشاهدة ما يحدث بملامح قلقة ومر تعبة ، نظر علي في وجه أبيه ، بتركيز و دقة وكأنه يصوب سهما اتجاهه تم أردف :

–لماذا حرمتني من حقي؟

–لقد فعلت ما رأيته صوابا.

رد الاب بنبرة ثابتة تقاوم الاضطراب .

–ليس من حقك أن تحرمني من حقي ، لن أسمح لك بذلك ؟

صوته كان كافيا لعكس سخطه الذي يتصاعد كحليب يغلي فوق النار ، فيما حاولت الأم بيأس أن تهدئ ثورته مترجية إياه بعبارات أمومية .

–بابني اهدأ ، حاول أن تكسب والدك باللين فهو يحبك ويريد فقط مصلحتك

–لن أرجو أحد لأخذ حقي.

أبعد يد أمه التي أمسكت بكتفه بحنان و ترجي لتحاول تهدئة غضبه ليتقرب من أبيه الذي جلس على السرير وبنظرة أكثر عدائية وملامح مشدودة أردف :

–سوف تغير مافعلته وتعيد إلي حقي وإلا ...

بعناء شديد عافر الاب لتمالك نفسه وإخفاء ارتجافه محاولا إيجاد فتات شجاعة في قاع روحه ، فنهض وقال وهو يرمقه بنظرة ترفض ان تخترقها شرارة عينه :

–لن أغير شيئا مهما فعلت ، صراخك و ووقاحتك لن تنفع ، ما من شيء تفعله قد يفاجئني .

جملة قالها وأدار وجهه لخوفه من الانهيار أمام نظرات إبنه المرعبة .هنا وصل غضب علي لمداه وأدرك أن الإرهاب النفسي لم يجدي نفعا ولم يؤتي أكله فكان كلام الأب كحطب يزيد لهب غضبه ، حتى وصل إلى درجة الخط الأحمر حيث يصير مغيبا ، فلم يتمالك نفسه وإذا به ينقض على أبيه بعنف وغل ، مشهد أفزع الأم التي هرعت لتحاول تفادي ما قد يحصل وتهدئة فوران الغضب الذي ثار من ابنها ،

بعبارات التوسل وملامح الاستعطاف ودموع اليأس جربت أن تبعده عن أبيه دون جدوى فدفعها لتقع على الارض ، مصمما على التمادي والامعان في ما شرع فيه موقنا أنه لا رجوع للخلف .

-سوف تغير ما فعلت وإلا سأقتلك .

-اللعنة عليك يا ابن السوء !

جملة الاب كانت كثوب أحمر أمام ثور هائج فهاجم والده الذي سقط على الارض منهك القوى غير قادر على التقاط انفاسه ، وقف علي ينظر لوالده وهو مرتبك لا يدري ما يفعل لوهلة ساوره شك عجز عن إيقاف تيار غضبه بعدما ادرك انه وصل نقطة الاعودة.إما أن يربح أو يخسر والان تراجعه لن يفيده في استرداد ما يريد ، لحظة تردد سرعان ما تبددت لينقض على أبيه مرة اخرى وتملكه الغضب والسخط حتى انطفئ عقله وعاود الاطباق على عنق ابيه مستمرا في تهديده حتى نسي كل شيء وصار مجرد قوة ضارية ومندفعة ، حاولت الأم وهي تصرخ باكية ايقافه مترجية اياه ومحاولة إيقاظ عقله المنطفئ ، صرخت ، بكت وترجت ، حاولت بيديها المجعدتين كورقة شجرة صفراء ، بكل ما تبقى لها من قوة استنزفتها السنوات ، ان تبعد يديه عن عنق ابيه ، ما دفعها لدلك لم يكن الخوف على زوجها ولكن على ابنها من ارتكاب جريمة قد تدمر مستقبله وتحوله الى مجرم ، هذا ما كررته على مسامعه محاولة ايقاظ عقله و فرملة غضبه الاهوج ،لوهلة توقف عن خنق أبيه و أفلت قبضته عليه ، لم يفعل ذلك

رأفة به و لا لاستيقاظ عاطفة البنوة في قلبه ولا لإدراكه شناعة ما سيقدم عليه ولكن لتنبهه أن موت أبيه لن يفيده بشيء بل سيضره حيث سيتحمل وزر قتل روح وقد يسجن ويخسر نصيبه من ماله.

حرر والده من قبضته فتنفست أمه الصعداء ، وساعدت زوجها الذي يسعل و يحاول امداد اعضاءه المحتضرة بهواء يرويها و يمسك بذيل روح همت بالخروج من جسمه ، فرحته لم تدم طويلا وقبل أن يبدي أي رد فعل ، تبخر أمله في استفاقة شيء من عاطفة إبنه نحوه إذ عاود علي الانقضاض عليه ، بعدما استغرق للحظات في تفكير عميق ، عاودت سمات وجهه للاكفهرار والسخط ، نظر لوالده وبحقد خال من أي رحمة توعده:

–لن أقتلك ، سأجعلك تتمنى الموت ، لن تخرج من الغرفة ولن ترى نور الشمس ، لن تأكل أو تشرب حتى دوائك لن تحصل عليه ، ستموت ببطء حتى تغير وصيتك.

استشف الأب المصدوم والمذعور من نبرة إبنه ونظرته أنه غير قابل للاسترحام ، لم يملك سوى نظرة عاجزة و استطلع وجه زوجته عله يجد بصيص رأفة ينجده ويغيثه ، فتات حب أو اخلاص أو شفقة ولدتها سنين العشرة ، عشم اجهضه وجه الأم التي بدت أعجز منه ومع ذلك حاولت بنبرة محتشمة ثني إبنها عما ينويه ، أوقفتها نظرة منذرة وضجرة ، أخد هاتف أبيه و أدويته ، كبل يديه و كمم فمه وهم بالخروج

أمام أم امتزج على وجهها حبها الاعمى لإبنها وحقدها على زوجها ونبض ضمير محتضر ، خرجا و أغلق الباب بإحكام ، حاولت الأم مرة أخرى استعطافه ولكنها قوبلت بصد عنيف ، ضاق ذرعا وسئم من أي مواعظ ، كانت تعرف أن ابنها لا يتأثر بكلا مها و دموعها على عكس بناتها الاتي يتأثرن بأول دمعة تذرفها و ينصعن لإرادتها دون تفكير ومع ذلك حاولت ثنيه رغم يقينها بعبثية ذلك ،إلحاحها وتكرارها للمحاولة كان بهدف درء اللوم وإخراس أي شعور بالذنب قد يضايقها .نزلا إلى الأسفل ،وهم بالخروج ولكن قبل ذلك أراد تحذير أمه بصرامة من أي محاولة لمساعدة أبيه ،مبررا سلوكه أن أباه حرمه من حقه وأنكر عليه ماهو له فهو الذي لم يعد يعتبره إبنه ، تصرف مشين وغير مبرر بالنسبة لعلي فكان من الطبيعي أن يبادله بالخيانة ولا يعتبره والده بعد اليوم ، ويقتل داخله أي فتات مشاعر و احترام ،بمبدأ أن البادي أظلم و بالتالي يحق له استرجاع حقه مهما كان الثمن ، دفاع شرعي عن النفس ، نتيجة منطقية لا تثير أي شعور بالذنب .هكذا برر لأمه ليبدد كل ذرة اعتراض أو شك لديها ويضمن تأييدها الكامل له ، أمر كان متأكدا منه فهو يعرف أن أمه عاجزة عن الوقوف ضده و تدعمه بشكل مطلق وأعمى مهما أخطأ و سوابق كثيرة أتبتث له ولاءها وجعلته يوقن أنها عجينة طيعة في يده ، ولكن زيادة في الاطمئنان حرص على شرح موقفه لها ليبثر أي شك قد يتسلل إليها ويسد أي ثغرة يتسرب منها تأنيب الضمير ، كلام أراح الأم و نسف شكوكها وارتيابها وحقنها بجرعة هدوء و ثبات . غادر علي بعدما تأكد من ولاء أمه الكامل و أنها تخاف عليه اكثر مما يخاف على نفسه ، تركها في البيت تقلب الامور

في رأسها ،تعيد شريط الاحداث وتقيم الوضع ، ما حدث لا يصدق، أبعد من قدرتها على التخيل ولكن رغم الصدمة ، حبها لإبنها وواجبها كأم يعطيها القوة لتحمل وتجاوز أي شيء ، دورها كأم يأتي فوق كل شيء و قبل أي أحد ، رسالتها كأم تبرر أي تصرف وتبيح أي وسيلة تتبعها ، الخطأ الوحيد الذي لا يغتفر هو تخليها عن إبنها وخذلانه ، بالنسبة لها مساندته هي ما تجعلها أما جيدة ،وهو التقدير الذي تحرص على الحصول عليه ، لم يهمها أن تنجح كزوجة أو كأم لبناتها بقدر ما تحرص أن تنجح كأم لعلي ، لذا كانت مستعدة لأي شيء لإرضائه حتى وإن كان ذلك على حساب أي شخص آخر. هذا المنطق كان أعلى من أي صوت و كافيا ليحررها من أي شك ، لبرهة فكرت أن تحرر زوجها ، أن تتصل ببناتها و تجهض خطة علي الجنونية ولكن سرعان ما استعاذت من الفكرة كأنها وسوسة شيطان ، دق الباب فانتفضت الأم وارتعدت أطرافها على غير العادة ، تملكها خوف و قلق ، للحظة فكرت ألا تفتح الباب و تتجاهل الزائر ولكن فضلت فتح الباب فالطارق قد يعود مرة أخرى في وقت أصعب ، فتحت الباب بارتياب و رهبة .كانتا حليمة ونعيمة ،ابنتاها برفقة ولديهما ، امتزج في حلق الأم طعم الراحة و القلق ، لم تعرف إن كانتا أفضل ما توقعت أو أسؤ ه ، سلمت عليهما بدفء بارد و هي تفكر في حجة تبرر بها غياب الاب و تخلصها من زيارتهما ، قلقها وخوفها لم ينسياها الحنق و الضيق الذي تحسه اتجاههن فهي اعتبرتهن مذنبات لمجاراة أبيهن في مخططه . فكانت تعابير وجهها تفتقر المودة و الغبطة برؤيتهما ، ما لبثت البنات تجلسن حتى سألن عن والدهن و

أخيهن ،ورطة لم تستطع النيل من مكرها و براعتها في ابتداع الاكاذيب بسرعة و مهارة لا تضاهى ، في أصعب الظروف و المواقف .بسرعة خنقت ارتباكها وهلعها من انكشاف السر و ردت ببرود :

-ابوكما ذهب لزيارة احد اصحابه المريض ، لم أشأ الذهاب معه لأني مشغولة في إعداد بعض الكعك ،

وعلي، خرج مع أصحابه يشم الهواء و يرى نور الله.

ردت باقتضاب عكس نفورها و عزوفها عن الحديث معهما ، أمر استشعرنه فرددن بابتسامة مستعطفة تطلب الود و الرضا .

-لابأس ، سنساعدك في اعداد الكعك .

-من يسمعكن يظن أنكن تهتممن بي و تخفن على صحتي

جملة كانت كحائط صد، اصطدمت به محاولة الاستعطاف، ولكن لم يستسلمن:

-نحن نحبك و لا نبغي إلا رضاك ، لكن انت لا يعجبك العجب .

رد امتعضت له الأم واغتبطت لأنها وجدت فيه فرصة للتخلص منهن دون اثارة أي ريبة .

–أجل انا المخطئة ، انا أسؤ ام في الدنيا ، لا أريد مساعدة منكن ولا تأتين إلي لتعكير مزاجي فما بي يكفيني .

تيقنت الأختان أن أمهما في حالة استنفار كمن يحمل سلاحا ويستعد لدخول حرب ، والبقية يعرفنها عن دهر قلب ، لم يكن امامهن سوى الاختيار بين مواجهة ضارية يعرفن نتيجتها مسبقا ، أو الاستسلام وطلب السماح ولو عن غير إقناع ، حلان لم يستسغن أيا منهما فقررن الانسحاب ، و ترك الامور حيث هي ،على أمل أن يأتي الوقت بفرصة تكون الأم بمزاج أفضل . غادرت الاختان مع أبناءهما و الأم ترتدي قناع المطعون في ظهره ، قناع سرعان ما خلعته لتتنفس الصعداء وتحمد الله على عدم انكشاف الامر وألا يحدث الاسؤ و ينفجر الوضع مؤمنة أنه لم يفت الاوان لتفادي الأسوأ و خط الرجعة لازال متاحا ،حل الظلام والأم تدعو ألا تفاجأ بضيف آخر فيفتضح أمرها ، اسودت السماء و الخوف يعبث بفكرها ، فضلت تمشي في طرقات المنزل وتسترق السمع على باب غرفة الزوج بقلق شديد و تبحث بيأس عاجز عن أي صوت يريح ضميرها ويرحمها من افكار ووساوس تفترس أعصابها، عاد علي بعد منتصف الليل وهو يترنح ويتمايل غير قادر على حمل نفسه ، حال لم يشجعها على البوح بما يؤرقها ، أيقنت باستحالة التحدث معه ،وأن الوضع سيبقى كما هو حتى الصباح وستظل فريسة الاضطراب و التوتر ، طوال الليل ، لأول مرة تحسده ، تتمنى لو كانت مكانه ، لو تقدر أن تتعاطى مخدرا يقتل كل شعور سلبي

بداخلها و يبعث فيها الهناء و راحة البال ، خلدت للنوم ، رفاهيتها الوحيدة ، آملة أن يرحمها من هواجس تؤرقها و تشد أعصابها ، فأحيانا كثيرة يكون العقل نقمة و عدوا لدودا يتعب و يقض المضجع ، صوت مزعج نسعى جاهدا لإ سكاته و الفرار منه بشتى الوسائل ، من بينها النوم الذي يطفئ صوت الضمير و يريح من أنينه المزعج ،سعت نجية جاهدة للهروب من كابوس لا تملك سوى الفرار منه ، فمهما كانت كوابيس النوم ، هي أرحم من كوابيس اليقظة شعرت بالذنب ، كيف تنام وزوجها مسجون دون طعام أو دواء لا تدري ما حل به ، ولكنه إحساس أخف من أن يبعد النوم عن عينيها ، استسلمت لغفوة أراحتها من التفكير لبضع ساعات حتى بزغ الفجر و استيقظت مفزوعة ، تمنت ألا تستيقظ ،أن يطول الليل إلى مالا نهاية وتبقى غائبة عن الوعي وهاربة من هموم تتآكلها ،كثيرا ما يتمنى الانسان ان ينام و يستيقظ و يحمد الله حين يفتح عينيه من جديد و أحيانا أخرى يكون استيقاظه نقمة تعذبه .

نهضت من السرير ، ذهبت إلى غرفة زوجها و استرقت السمع ،بحثث بأذنيها عن أي إشارة أو ذرة صوت تريحها و لكن دون جدوى .لم تجد سوى صمت ثقيل زاد من كآبتها ، فكرت أن تأخذ المفتاح من علي خلسة و تفتح الباب لكنها لم تجرؤ ، خوفها من غضبه ردعها ، لم تجد بدا من انتظار أن يستيقظ ، مهمة شاقة وطويلة تجعلها لعبة في يد الهواجس و الوساوس و تسلية للقلق والتوتر ، لم تجد أمامها سوى أعباء المنزل كمنفذ تستهلك به الوقت ، الى أن أفاق علي من نوم عميق أفرغ

معدته وأشعل شهيته لأكل فطور كانت الأم قد أعدته مسبقا وقد تنفست الصعداء لقرب انتهاء الكابوس الذي يهيمن عليها .كل ما ارادته ان ينقضي الامر و لو بأي شكل مهما كانت النهاية ، المهم سترتاح من تصور أسؤ الاحتمالات وكأنها في متاهة ، فرغ علي من شحن جسده بما لذ وطاب من خيرات . فيما أمه تراقبه في صمت خائف ، تتحسس و تبحث عن طريقة آمنة تفتح بها موضوع والده دون إثارة غضبه وكأنها تمشي بحذر في طريق ملغوم ،تخاف أن ينفجر في وجهها .ثم قررت أن تبدأ بسؤال خجول يستطلع مزاجه:

– ماذا ستفعل يابني ؟

دون أن ينظر اليها ، رد ببرود :

– سأفعل ما يجب علي فعله لأستعيد حقي.

جواب قاله بنبرة تغلق الباب أمام أي سؤال آخر.نهض و اتجه نحو غرفة أبيه وقد تبعته أمه بفضول و توجس كبيرين ، دخلا الغرفة ليجدا ضحيتهما جامدا و مزرق البشرة ، ارتعدت الأم واصفر وجهها .

–لقد مات أبوك ! ياإلهي ما هذه المصيبة !

قبل أن تترك العنان لصدمتها وتبدأ بالصراخ ، أوقفها إبنها بعنف و حدة :

– اصمتي ! هل تريدين، أن تفضحينا ، إنه حي ، لم يمت ، هو فاقد للوعي فقط .

استكانت الأم و تنفست الصعداء ، ولكن استشعرت عندها خطورة ما أقدما عليه و أنها أضعف مما توقعت و ان الامر يفوق قدرتها على التحمل . فك الابن وثاق أبيه ، وطلب من أمه إفاقة زوجها بكوب ماء أيقظ وعيه الغائب ،ظل علي يراقب ما يحدث دون أي رد فعل ، كانت نظراته الحادة و الواثقة تنثر عزما و تصميما فولاذيا ولكن في داخله كان هناك صراع شرس بين إحساسين مختلفين ، احساسان يتضاربان بضراوة ، خوفه على نفسه و شيء من الشفقة تجاه أبيه ، ومن جهة أخرى اندفاع أعمى و مصلحة تلوح في الافق كواحة تبدو من بعيد لعطشان يقتله الظمأ ، تجذبه اليها كمغناطيس يجرده من أي قدرة على المقاومة و يهون عليه أي ضحية يدهسها في طريقه. شعور يجره للوراء وآخر يسحبه للأمام ، لم يتردد في إتخاد قراره و عزم على المضي قدما في ما قرره ، موقنا أن أوان الاختيار قد فات ، فقد تورط و أمعن في شر لن يسلم من عواقبه بتراجعه والأهم أنه لن يتنازل عن حقه في مال أبيه ، غاية تبرر أي شيء يفعله لذا على عكس أمه لم يظهر عليه شك أو لمحة تردد ، استفاق الأب و عاد بين الاحياء .همت الأم بالذهاب لإحضار الأكل له و تزويده بطعام يقوته ، فأوقفها علي بنظرة أغنت عن أي كلام.اقترب علي من أبيه وجلس بقربه ، تبادل الإثنان نظرات استطلع كل منهما باطن الاخر وما إذا قد استسلم وانصاع للآ خر. فجأة قطع علي صمته :

–آمل أنك فكرت و غيرت رأيك ، ورأيت أني لا أمزح، رأيت ما فعلت بك ليلة واحدة ، تخيل ليلة اخرى دون ماء أو دواء أو أكل وأخرى و أخرى ، كم ستصمد ؟ ليلتان ،ثلاثة ، هذه المرة سقيتك ماء ، رحمة مني ولكن لن أكررها مالم تعد لعقلك .

صمت الأب و العجز يكسو وجهه ، امتلأت عيناه بدموع لم يقدر على ذرفها. كانت نظرة علي له المليئة بالغيظ و الكره والخالية من أي لمحة عطف أو حتى شفقة ، أكثر قسوة عليه من حرمانه من الماء و الطعام .لم يعرف نفسه سبب عجزه عن الكلام، أهو الخوف، الصدمة أو الوهن.صمت أغاظ علي أكثر ، و نسف صبره .فصرخ في وجه أبيه ، رافضا أن ينكسر أمام نضرته المستعطفة و يستسلم لعيونه المتهمة :

– سأمهلك ساعة واحدة، لتعطيني ردك، وإلا ستبقى هنا حتى تموت، لا أحد سينجدك.

خرج علي من الغرفة وتبعته أمه العاجزة كأمة تتبع سيدها في خنوع مطلق. مرت الساعة و سكان البيت كل غارق في حساباته ، ينتظر مصيره و يعد دقائق فاصلة في حياته ، الأم فريسة خوف حاصرها من كل جهة ، نعم هي لا تحب زوجها لا تكن له أي عاطفة ، لا بل اعتبرت وجوده في حياتها نقمة و عقابا من الله .ولكن احتمال وفاته وبهذه الطريقة حرك في داخلها شيئا من التأثر وأن ترى ابنها يتحول لقاتل أمر

فظيع ، لطالما تغاضت عن عيوبه و أخطائه ، ورسمت له صورة براقة في خيالها لم تسمح لشيء أن يشوهها .لكن ما قد يفعله الآن يهدم حلمها و يمنعها حتى من صورة كاذبة تسعد رغبتها كأم . من جهته كان علي عازما على التمادي إلى أبعد حد ، دون أن يلتفت الى الوراء ، مرت الساعة ، صعد علي لأبيه .فتح الباب و دخل الى الغرفة وهو خائف من رفضه ، و ما سيترتب عليه ، سيتحمل ذنب موته ، مقابل لاشيء ، سيخسر ماله و يتحول إلى متشرد فقير. تظاهره بأنه في موقع قوة كان مجرد وهم إدعاه ليخيف أباه . دخل الغرفة وهو يترجى و يدعو أن يصير ما يتمناه ، رمق والده بنظرة ازدراء و قسوة أخفت يأسا و استعطافا .لم ينتظر طويلا حتى أخبره أبوه بموافقته على إلغاء ما فعله و إعادة الأ مور إلى نصابها . تنفس علي الصعداء و اعتلت وجهه فرحة انتصار غير متوقع ، لم يصدق ما سمعه ، قرار الأب لم ينقد حياته بل انقد علي ،انقد حياته و مستقبله .

إجتاحه سرور عارم ولكن لم يمنعه من الحيطة والحذر ، فحذر آباه من أي محاولة لخداعه أو اخبار أحد بما حصل وإلا سيندم ، فقد صار يعرف ما هو قادر عليه ، وإن فضح الأمر لأحد سينكر هو وأمه ، سيقولان أنه مصاب بالزهايمر وصار يتخيل أشياء لا وجود لها .ولن ينجيه أحد من قبضته . خضع الأب لرغبة إبنه ، دون جدال ، اتصل علي بأخته وأخبرها الأب عن رغبته في استعادة ما باعه لهن

بعد تفكير طويل واستشارة بعض رجال الدين اللذين أخبروه بمكروهية ما فعل ، و أن عليهن إعادة بيع ما أعطاه لهن اليوم، حتى يرتاح ضميره ، لم يستغرق الامر وقتا طويلا حتى ثم الأ مر وانصاعت البنات لأمر أبيهن بلا محاججة أو اعتراض ثم جئن للبيت لاعطاءه وثيقة التنازل ولكن وجدنه يغط في نوم عميق ، لم يجدن بدا من الرحيل دون التحدث اليه ، في تلك الليلة شعر علي بنشوة غامرة و فوز عزز غروره ولكن مع ذلك ظل هناك شيء يؤرقه و يخيفه ، ينغص عليه فرحته باسترجاع حقه ،ظل شبح افتضاح أمره يلاحقه ، ماذا لو قال لهم والده ما حصل ، قد يصدقنه مهما أنكر هو وأمه ، فهن وأزواجهن قد يصدقون أي شيء سيء عن علي و يعرفون أن أمه تدعمه في الحق والباطل ، عندها قد يحرمه مجددا من حقه و هذه المرة سيجد من يحميه و سيقف الكل ضده و حتى القضاء لن ينصفه .هاجس تربص بفكره و ضل يلاحقه أينما ادار وجهه ، خرج للاحتفال مع أصحابه ، حاول بكل جهده طرد هده الفكرة من عقله دون جدوى ،جرعة زائدة من المخدرات لم تنجح في اسكات ذلك الوسواس المزعج ، لم تخلصه من شوكة عكرت فرحته ، شعر أن سكينا وضع على عنقه ويهدد مستقبله لابل حياته نفسها ، ظل الهاجس يستشرس و يصير أقوى و أفظع من قدرته على التحمل ،لم يجد بديلا عن استئصال هذا الخطر وعدم تركه للظروف.

عاد للبيت موقنا بأن عليه التصرف ، الليلة ، فغدا ستأتي أخواته مع أولادهن وأزواجهن ، وقد يفتضح السر ، لا يمكن أن يعيش مع الشك ، كان عليه التصرف

الآن فليس هناك وقت للتردد و التخمين ، صعد إلى الغرفة وجد أباه ممددا في السرير، نائما ، ظل ينظر إليه بتركيز و إمعان ، ثم قرر أن يهزم تردده و قد أيقن أن أباه هو السبب ، هو من بدأ و يستحق ما يجري له .هو البادئ والبادئ أظلم .انقض على أبيه وأطبق على عنقه بوسادة أمعن في خنقه بها ، وهو يردد في عقله أن أباه هو الظالم ،جملة أمدته بجرعة فائقة من الجرأة و الاندفاع ،فجأة رفع علي يديه .

هاله وجه أبيه وقد ارتسم الموت عليه بعدما سحبت منه الحياة ، خمدت ثورة هياجه فقد أدرك الكارثة التي تسبب فيها ، وقف وعاد للوراء ليصطدم بأمه ، التي جاءت بعدما أيقظها صوت مزهرية أسقطتها يد الاب وهي تعافر وتبحث عن شيء ينجدها، فتسمرت مما رأت وتجمدت أطرافها ، فبدت كميت واقف تركزت نظرتها على رفيق دربها الذي انتهى جثة هامدة ، مشهد هو ختام قصتها معه ومشوارها لجواره . منظر جعل حياتها معه تمر كشهاب في السماء غاصت في تفاصيل و صور تدافعت أمامها ،كحبات رمل تتساقط من سفح الجبل ولكن ادركت أن الصدمة والتأثر ، رفاهية بالنسبة لها وأن الوقت ليس وقت النحيب ، جربت أن تكذب ما رأته وحاولت إفاقة زوجها ،بمجرد ما لمسته أيقنت أنه غادر الحياة ، أدارت وجهها نحو ابنها وقد تحول الى طفل مذعور جمدت ملامحه ، هجمت عليه في اندفاع لم تجرؤ عليه من قبل فهي كانت تخشى حتى النظر في عينيه التي تشل حركتها ، بنظرة ذهول و عدم تصديق ، صرخت في وجهه:

-مالذي فعلته؟ لقد قتلت والدك ؟قتلته !!؟

-هو السبب هو الذي استفزني ؟ !! .

عبارة فتحت عينا نجية على مصراعيها.

-ماذا تقول ؟ مما انت مصنوع ؟ أيها العاق ، لعنة الله عليك ! لعنة الله عليك !

جملة لم تنجح في تحريك ضميره أو مشاعره بل زادت من رعونته فأمسك بذراعيها ورمقها بعينين مرعبتين وبنبرة مخيفة توعدها:

--اسمعي انه رجل عجوز ومريض مات بشكل طبيعي ! هل فهمتي ؟! هذا ما ستقولينه للجميع وإلا .

بشفتين مرتجفتين وعينان امتلأتا بدموع الخوف و عدم التصديق ،سألته:

-وإلا ماذا ؟ ستقتلني كما قتلته ؟

-إن اضطررت لذلك، نعم سأفعل، لن أدخل السجن بسببكما، أفهمت أنا لا أمزح، كوني عاقلة!

لم تعرف أي احساس كان الاقوى ، الخوف ، الحسرة، الغضب ، كلها مشاعر عصفت بها وعقدت لسانها ولكن لم يمنعها ذلك من استجماع قواها ولأن ماحصل كان يفوق كلما توقعت حدوثه وقدرتها على الاستيعاب فتفجرت ردة فعل لم تتوقع ان

تصدر منها ، دائما كانت تتغاضى وتتمالك نفسها عن أي تصرف أو لفظ يقوله خصوصا هو و تتظاهر بعدم سماع أقواله مهما كانت فظة و مباشرة حتى وان كانت امام الناس كانت تكتم ضيقها بصمت كامل وتقضي الليل مستيقظة من شدة الحزن دون أن تفصح عن أي امتعاض ولو بنظرة عاتبة.

انقضت عليه و أمسكت بكم عنقه وشدته بقوة وغل:

-أنا اللتي ربيتك و كبرتك وصنعت منك رجلا ، فضلتك على كل أخواتك ، حققت لك كل ما أردت ،لم أرفض لك أي طلب ،كنت تخطئ و تخطئ وأنا أدافع عنك و أذل نفسي للغير ليسامحك ، دون أن أقول لك كلمة عتاب ، طول عمري وأنا أعظم شأنك وأعطيك قيمة أمام الناس وأجعلك أفضل من الجميع ، لطالما تحملت إهاناتك وتجريحك لي أمام الناس وأنت تعاملني كخادمة ، وأنا صامتة أكتم وجعي ، وفي النهاية تهددني بالقتل هذا جزائي ، يا ليتني ما أنجبتك و لا ربيتك يا ابن السوء ،أيها العاق ، أيها الجاحد . لعنة الله عليك .

نظر اليها باشمئزاز صامت قبل أن يدفعها على السرير ويخرج من البيت ، هارعا، عادة ملازمة لعلي فلطالما كانت ردة فعله على أي مشكلة ، أن يخرج من المنزل ويغيب لساعات طويلة ، تم يعود ليجد الكل في انتظاره و قد نسي الجميع ما حصل و ماجرى ، ويجد أمه في استقباله بابتسامة عريضة ، وبوجبة دسمة تعوض جوع غيابه .هذه المرة كان الأمر مختلفا انها جريمة قتل ، شأن يصعب لمه و معالجته من

طرف الأم ، التي استغرقت في بكاء ونحيب على حالها وليس على زوجها ، فالدموع هي سلاحها الوحيد والدواء المتوفر لوجعها الكبير ، ولكن أمومتها وحبها لوحيدها كان أكبر من أي ألم أو إهانة ، كانت تورثها عاصفة عابرة ، لتترك المجال لعاطفة الامومة التي تمسح أي ضغينة اتجاه علي ، تمدها بصبر و حكمة لا حدود لهما وتجعلها قادرة على المستحيل لحمايته مهما كان الكلفة .

في الصباح اتصلت الأم ببناتها لتنقل اليهن خبر وفاة والدهن ، لتطلق العنان لعاصفة من الصراخ و العويل ، قبل ان تحضرن الى المنزل ، أمر أقلق نجية ووترها لم تعرف ما ستقوله ، كما خافت أن تظهر عليها علامة ارتباك أو قلق تثير شكهن ، لأول مرة يخونها دهائها وتشك في قدرتها على ابتكار كذبة بسرعة و باقناع تامين ، وصلت بناتها و شرعن في وصلة بكاء و صراخ وعناق خال من أي كلام وكأنه عرض اوبرالي . استمر لحوالي ساعة تناوبت فيه وتسابقت الفتيات على البكاء والنحيب ، قبل أن يسألن عن تفاصيل الوفاة ، سؤال أربك نجية للحظة ،و لكن استجمعت جأشها و بثبات أجابت :

-لقد مات فجر اليوم ، سمعت صوته يسعل فنهضت و أحضرت له كوب ماء فشرب و بعدها أوصاني أن أهتم بكم و أقول لكم أن تظلوا متحدين و متحابين ثم أسلم الروح لبارئها .

-لماذا لم تتصلي بنا وقتها ؟

–لم يكن أمامي وقت لذلك، كل شيء حدث فجأة، حتى أخوكن وصل بعدما توفي.

جملة قالتها بتنهيد و نحنحة تبعتها وصلة بكاء حاد ، منعت البنات من أي استفسار فهرعن لمواساتها و مشاركتها النواح .

في اليوم التالي تلون البيت بالسواد وعج بالناس ، الاقرباء والغرباء ،وصار كخلية نحل ، يخيم عليه ضجة وجلبة اختلط فيها البكاء والأنين و ثرثرة و تهامس كل نساء الحي ، قبل ان تقدم مأدبة الطعام حيث ساد ضجيج المعالق و الاكل ، ثم تناوب الحضور على رؤية جسد المتوفي ، منهم من أراد توديعه ومنهم من دفعه الفضول لرؤية شكل ميت ، ثم غادر الكل و تضاءلت الاصوات وخيم الوجوم على المنزل ، تعاقبت الايام وجفت الدموع ، وعاد كل لحياته و جاء وقت التطلع الى المستقبل وما سيعود على الجميع من وفاة الأب ، فالموت ككل شيء في الحياة يحمل حزنا و مرارة ولكن يحمل خيرا و فائدة ، مبلغ من المال سيعين كل شخص على متاعب الحياة وأزماتها ، اجتمع الورثة و أخد كل حقه ، ولم يبقى سوى المنزل ، بعد جدال طويل و مشادات ، خضع الجميع لإرادة علي ببيع المنزل رغم اعتراض أخواته ولكنهن اعتدن و تأقلمن على فكرة سريان إرادته فهو بالنسبة لهن كدولة عظمى تحتكر حق الفيتو فتفرض رأيها على دول ضعيفة بغض النظر عن المنطق أو الاغلبية. لم تمر أسابيع حتى بيع البيت و اقتسم الورثة ماله ، بالنسبة للفتيات كان بيع المنزل هو آخر صفحة في

حياة عائلة الخمليشي ، مع توديع المنزل ودعن ذكرياتهن برغم أنهن تزوجن وغادرن المنزل مند زمن لكن البيت كان كمتحف يحفظ كل ماعشن داخله، لحظات حزينة و أخرى سعيدة ، هناك فتحن أعينهن على الحياة ، حصلن على إسم و مسكن تعايشوا فيه مع افراد اخرين ، هناك عرفن قانون الحياة ، قيمتهن ،حقوقهن و وواجباتهن ومعنى كونهن نساء ،برغم لحظات كثيرة حزينة عشنها داخله ، عرفن الخوف و الظلم ، القسوة و القلق والضياع ، كم ليلة بتن باكيات ، موجوعات متعطشات للمسة حنان ومواساة و نظرة اهتمام ، لحضن يحتضن ضعفهن و يمسح دمعتهن ، لحظات شقاء و وتعب من أشغال شاقة، التهمت طفولتهن و جهدهن . لحظات ولحظات محفورة في عقولهن بعمق يستعصي على الزمن مهما طال أن يمحيها ، احساس مزمن امتزجت فيه مشاعر كل موقف و كل حادثة اختبرنها ، يتملك جوارحهن، استأنسن به كما يتعود معاق على إعاقته لعجزه على التخلص منها، وطعم استوطن حلوقهن ،فيشعرن بمذاقه المر كلما بلعن ريقهن. لحظات كثيرة خزنها داخلهن ويستعدنها كلما رمقن ركنا أو غرضا من البيت، ومن كثرتها جرفت معها أي لحظة سعيدة عشنها ، رغم تحرقهن للحظة يغادرن فيها البيت .رغم كل ذلك امتلأت قلوبهن بحنين وشجن وهن يرين البيت لآخر مرة ، شوق وحزن لم يفهمنه ، واستغربنه ، كيف يتولد التعلق و الحب اتجاه أي شيء نتعود عليه وإن كرهناه ، ونحزن لفراقه فالذكريات عزيزة و غالية حتى وإن كانت مؤلمة لأنها شاهد على حياتهن وتشكل جزءا من كيانهن فانتماءها لهن يعطيها معزة و غلاوة و بتوديع المنزل يودعن جزءا من ذاتهن . شيء منهن يموت .

أم علي من جانبها ، تحسرت على الأ يام التي حولتها من ربة منزل لضيفة تنتقل بين بيوت بناتها .

في اليوم الاخير قبل مغادرة المنزل ،كانت تنتوي ابتياع شقة صغيرة تعيش فيها مع إبنها ، بحصتها من البيت ، ولكن أمرا حدث ، غير خطتها ، وهي تودع أركان البيت ، وهي تقلب في كتاب ذكرياتها ، فعلى عكس زوجها وباقي الازواج ، البيت بالنسبة للزوجة هو عالمها ودنياها مكان يختصر كل الاماكن ، مكان للعمل والراحة للترفيه و الاستجمام ، فيه السجن و الحرية فيه الراحة والشقاء ، الاحتفال و الحداد ،يجمع كل تجارب الحياة بمرها وحلوها ، أثناء تأملها بعين مغايرة كل ما اعتادت رؤيته من تفاصيل .لمحت علي وهو ينزل الدرج بسرعة مريبة ، نادت عليه لتعرف ما يعجله ولكن رمقها بنظرة فارغة من أي معنى ، قبل ان يكمل طريقه للخارج مغلقا الباب بعنف ، تلك النظرة ظلت محفورة في بالها لأنها كانت آخر ما رأته من ابنها ، الذي اختفى منذ ذلك اليوم ، وأخذ معه نصيب أمه من مال وضعته في غرفتها بانتظار إيداعه في حساب بنكي ، أمر لم تبح به لبناتها ، فصارت دون مأوى ، لم تجد أمامها سوى بناتها فصارت تنتقل بين بيوتهن ،اندمجت في حياتهن فصارت الجدة التي تحكي القصص لأحفادها من موسوعة ذكرياتها ، مخزونها من الحياة ، وحين تثار سيرة علي و ما حل به كانت تتنهد بألم وتلوم الأيام والقدر على ابنها العاق وأحيانا أخرى تلوم عيون الحساد و الحاقدين اللذين ظلوا ورائها حتى فرقوها عن إبنها وأتلفوا حاله ،

لتختم متضرعة لله ان يأخذ حقها منهم ،فقدرة الله أكبر من أي شخص وانتقامه عظيم مهما طال الأمد .انغمست في حياة بناتها ومتاعبهن وحين تتشاجر مع إحداهن تذهب للأخرى حتى تتصالح مع الاولى ، وراحت تعينهن بمالها من خبرة في الحياة على همومهن ، خصوصا إبنتها الصغرى التي شعرت بمعاناتها فهي لم تنجب سوى بنات ، ثلاث فتيات ، جعلنها محط سخرية و همز ولمز من زوجها وحماتها و كل من يعرفها حتى شقيقاتها ، فلم تجد سوى أمها لتدعمها فراحت توصيها باختبار الوصفات الطبيعية من اعشاب و خلطات و تتردد على السحرة و المنجمين لفك سحر أو عمل حجاب يفك نحسها و لكن دون جدوى فأنجبت بنتا رابعة زادت من همها و يأسها ، وأطفأت أملها ، أمل جددته الأم بنصائحها و بطريقة جديدة لم تجربها ،بعثت الأمل فيها و غدت حلمها البعيد والغالي بأن تصبح يوما ما أم الصبي.

نبذة عن المؤلِّفة

الاسم: سهام النجمي

الدولة: المغرب _ فاس

_ حاصلة على إجازة في الأدب الفرنسي

_ تعمل مدرِّسة ثانوي في اللغة الفرنسية

أعمال سابقة:

_ قصة قصيرة «مجرّد شبه» نُشرت إلكترونيًا بسلسلة «قصص وحكايات» الصادرة عن دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2019

دار
قصص وحكايات
للنشر
الإلكتروني